أطروحات الإلحاد المعاصر ونقدُها " ريتشارد دوكينز أنموذجا دراسة عقدية نقدية "

Theses of Contemporary Atheism and Their Critique: "Richard Dawkins as a Model" – A Critical Theological Study

إعداد

محمد بن عبد الرحمن السيف
Mohammed Abdulrahman Al-Saif
قسم الثقافة الإسلامية بكلية التربية في جامعة حائل

د. حسان بن إبراهيم الرديعان
Dr. Hassan Ibrahim Al-Rudaian
الأستاذ المشارك بقسم الثقافة الإسلامية

Doi: 10.21608/jasis.2026.499452

استلام البحث ٢٥ / ١ / ٢٠٢٦
قبول البحث ٣ / ٣ / ٢٠٢٦

السيف، محمد بن عبد الرحمن والرديعان، حسان بن إبراهيم (٢٠٢٦). أطروحاتُ الإلحاد المعاصر ونقدُها "ريتشارد دوكينز أُنْمُوذَجًا" - دراسة عَقَدية نقدية. ***المجلة العربية للدراسات الاسلامية والشرعية***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ١٠(٣٦)، ٨٣- ١٥٨.

أطروحاتُ الإلحاد المعاصر ونقدُها "ريتشارد دوكينز أُنْمُوذَجًا"

http://jasis.journals.ekb.eg

دراسة عَقَدية نقدية

المستخلص:

هدفت الدراسة إلى التعريف بظاهرة الإلحاد المعاصر (الإلحاد الجديد) واستعراض أطروحات أحد أبرز رموزه في العصر الحديث، وهو العالم البريطاني "ريتشارد دوكينز"، مع تقديم نقد عقدي وتفنيد منهجي لشبهاته التي يطرحها ضد الأديان عموماً والإسلام خصوصاً. اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي الاستقرائي، حيث قام الباحث باستقراء وتحليل مؤلفات دوكينز المترجمة للعربية ومرئياته وحواراته الإعلامية للوقوف على مرتكزات فكره الإلحادي. تمثلت عينة الدراسة (المادة البحثية) في الكتب السبعة المترجمة لدوكينز، وعلى رأسها كتاب "وهم الإله" و"الجين الأناني"، بالإضافة إلى المقالات والمناظرات المنشورة له عبر وسائل التواصل الاجتماعي. لم تستخدم الدراسة أدوات إحصائية بالمعنى الكمي لكونها دراسة نقدية عقدية، بل اعتمدت على أدوات التحليل النوعي والمقارنة العقلية والشرعية. وتوصلت الدراسة إلى نتائج هامة، أبرزها: أن الإلحاد المعاصر يتميز بالاعتماد التام على العلم التجريبي (الساينتيزم) وتجاهل الفلسفة، وأن أطروحات دوكينز تعاني من تناقضات منهجية صارخة؛ حيث يمزج بين المنهج الخطابي العاطفي والمنهج العلمي بطريقة مضطربة، كما أن إنكاره للغيب يقابله إيمان "يقيني" بفرضيات علمية لم تثبت بعد. وأثبتت الدراسة أن الشبهات المثارة حول الإسلام (كالحجاب، والجهاد، ومصادر القرآن) هي تخرصات تفتقر للدليل التاريخي والعلمي. وأوصت الدراسة بضرورة تكثيف البحث في "الإلحاد الجديد" وتأهيل المتخصصين في العقيدة للرد على الشبهات التي تُعرض بلباس العلم، وضرورة تزويد الشباب المسلم بحصانة فكرية تجمع بين الدليل الشرعي والعقلي لمواجهة المد الإلحادي عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: الإلحاد المعاصر، ريتشارد دوكينز، نقد عقدي، العلم التجريبي، وهم الإله، الشبهات.

Abstract

This study aimed to define the phenomenon of contemporary atheism (New Atheism) and review the arguments of one of its most prominent figures in the modern era، the British scientist "Richard Dawkins،" while providing a theological critique and systematic refutation of the suspicions he raises against religions in general and Islam in particular. The study adopted a descriptive-analytical-inductive methodology، where the researcher extrapolated and analyzed Dawkins' translated works into Arabic، his visual materials، and media interviews to identify the foundations of his atheistic thought. The study sample (research material) consisted of Dawkins' seven translated books، most notably "The God Delusion" and "The Selfish Gene،" in addition to articles and debates published via social media. The study did not use statistical tools in the quantitative sense as it is a critical theological study; rather، it relied on qualitative analysis tools and rational and legal comparisons. The study reached significant results، most notably: that contemporary atheism is characterized by total reliance on empirical science (Scientism) and the neglect of philosophy، and that Dawkins' arguments suffer from glaring methodological contradictions، as he mixes emotional rhetorical methods with scientific methods in a turbulent manner. Furthermore، his denial of the unseen is countered by a "certain" belief in scientific hypotheses that have not yet been proven. The study proved that the suspicions raised about Islam (such as the hijab، jihad، and the sources of the Quran) are fabrications lacking historical and scientific evidence. The study recommended the necessity of intensifying research into "New Atheism،" qualifying specialists in theology to respond to suspicions presented in the guise of science، and providing Muslim youth with intellectual immunity that combines legal and rational evidence to confront the atheistic tide across social media.

Keywords : Contemporary Atheism، Richard Dawkins، Theological Critique، Empirical Science، The God Delusion، Suspicions.

مقدمة:

إنَّ الناظرَ في علم التاريخ يرى -بجلاءٍ- مسيرةَ تَطوُّرِ الأُمَم، وتَحوُّلِها من حال إلى حال: إمَّا عُلُوًّا أو انحدارًا؛ سواءٌ على الجانب السياسي، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو الديني -وهو ما يَهُمُّنا في هذه المقدمة-؛ وما ذلك إلَّا نتيجة السُّنَن التي كتبها اللهُ على البشر؛ حيث التَّبدُّلُ والتَّغيُّرُ الحتميُّ الذي قدَّره اللهُ على عباده امتحانًا واختبارًا، كما قال -سبحانه-: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ [سورة آل عمران: ١٣٧-١٤٠].

وعندما يطرأ على الدين أفكارٌ مُستحدَثة، وطرائقُ جديدة تتعرض لأصول الدين جملةً أو لبعض أصوله، فيكون الواجبُ على أهل العلم أن يتفادَوْها بالعلاج قبل التفشِّي والظهور. ولا شك أن هذا منهج ربَّاني جليل، وسُنَّة نبوية عظيمة؛ فها هو -عليه الصلاة والسلام- قد استَبَقَ الحدثَ وحذَّر أُمَّتَه بوقوع البدعة ونشوء الفُرْقة، فأرشدهم إلى المنهج السديد والسبيل القويم للتصدِّي لها.

ثم إن المتأمِّل في حديث رسول الله -عليه الصلاة والسلام-: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَن كان قَبْلَكم»[١]؛ يُدرِك أن هذا الأمر حالٌّ في كل زمان ومكان؛ إذِ السُّنَنُ تقضي بذلك والتاريخُ يشهد، فها هم اليهودُ والنصارى تَفرَّقوا فِرَقًا ومسالكَ كما أخبر -عليه الصلاة والسلام- في قوله: «افتَرَقَتِ اليهودُ على إحدى وسبعين فِرْقةً، وتَفرَّقتِ النَّصارى على اثنتينِ وسبعين فِرْقةً، وتَفرَّقَتْ أُمَّتي على ثلاثٍ وسبعين فِرْقةً»[٢].

وإنَّا لَنشهدُ تَفرُّقَ الأُمَّة منذ انصرام عهد النبوة، وكما هو معلومٌ أن الشُّبَهَ تتجدد بتَجدُّدِ العصور، وتتطور مع طول الأَمَد؛ غيرَ أنها في هذا العصر الحديث أصبحت أسرعَ انتشارًا وأسهلَ ترويجًا؛ حيث تَقارَب العالمُ وأصبح كالمدينة الواحدة، فلا يكاد الخبر يُذاع في الشرق حتى يَصِلَ الغربَ في لحظات! وهذا وإنْ كان نعمةً عظيمة من الله يجب أن تُشكَر وتُستغَلَّ في الخير والدعوة إلى الله؛ فكذلك يجب أن يُحْذَر من جانبها الآخَرِ الذي يُستغَلُّ من المفسدين والأشرار.

وفي هذا الجانب تدخل شبهاتُ أهل الإلحاد على المسلمين بشكل جديد، وثوبٍ غير الثوب الذي ظهرت به في القرون الماضية، وإنْ كانت تتشابه مع بعضِ شبهات أهل الكلام السابقين، ولكنَّها تطورت حسَبَ مُعْطَيات العصر؛ كالقول بالجَبْرِ، وقِدَمِ العالَم، وغيرِها ممَّا يستوجب عرضَها بتطوُّرِها ثم الرَّدَّ عليها.

وقد تَولَّى كِبْرَ هذه الشبهات عددٌ من الملاحدة قديمًا وحديثًا؛ غيرَ أن التأثير الأكبر والرَّواج الأكثر كان لشخصيةٍ جعلت العَداءَ للأديان هدفَ حياتها، كما يقول: (إذا كان هدفُك قتلَ الأديان مِثْلي؛ فاستخدِمِ التطوُّرَ)، وكرَّستْ كلَّ وسيلة للترويج للإلحاد: مقروءةً، أو مسموعةً، أو مرئيةً.

بل وصل به الأمرُ إلى أن استَغَلَّ وسائلَ التواصل الاجتماعي استغلالًا كبيرًا، ووجَّه بُوصلتَه للعرب، وترجم كثيرًا من أقواله وشبهاته؛ فهو رائد من رُوَّاد الإلحاد بفضل اشتراكه المتزايد في المناقشات العامة عن العلم والمذهب العقلاني؛ أعني بهذا الكلام: «ريتشارد دوكينز» عالمَ الأحياء في جامعة أكسفورد، الملحدَ الأشهر في هذا الزمن.

ولذيوع شُهرته وشدَّةِ أثرِه، فقد تأثَّر به بعض من شباب المسلمين في البلاد العربية، وله مُتابَعةٌ عالية في حساباته من قِبَلِهم، وقد تُرجِمَ كتابُه «وَهْمُ الإله» إلى

---

[١] «صحيح البخاري» رقم (٧٣٢٠).

[٢] صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» رقم (١٠٨٣).

إحدى وثلاثين لغةً، منها اللغة العربية.

ولأهمية دراسة طرحِ هذا الرجل، وطريقة عرضه للشبهات؛ حيث إنَّه يُمثِّل منهج الإلحاد الجديد المعاصر؛ عزَمتُ مستعينًا بالله -بعد المشورة- أن أتناوله بالبحث والدراسة، والله المُعِين والموفِّق.

أهمية الموضوع:

١- تكمن أهمية الموضوع في أهمية معرفة الإلحاد المعاصر، أو الإلحاد الجديد (New Atheism)؛ هذا المصطلح ظهر حديثًا على ألسنة أربابه في الغرب، يسلك فيه أصحابُه طرقًا جديدة في المواضيع التي يتناولها، فأهميته بأهمية أثره وانتشاره في الزمن الحاضر.

٢- كما تأتي أهمية الموضوع بأهمية هذه الشخصية في الإلحاد المعاصر؛ حيث وسَّع دائرةَ الإلحاد المعاصر بأساليب وشبهاتٍ جعلت الإلحادَ المعاصر يأخذ أشكالًا وأبعادًا وآثارًا أخرى.

أسباب اختيار الموضوع:

١- الأثر المباشر للإلحاد المعاصر على شباب المسلمين اليومَ.

٢- غموض مفهوم الإلحاد المعاصر، وعَلاقته بالإلحاد القديم.

٣- أهمية وبروز الشخصية محل البحث «دوكينز» في الفكر الإلحادي المعاصر، وقُوَّةُ تأثيرها في الوسط الشبابي والإعلامي، وانتشار كتبه وسهولة عبارتها؛ خاصَّةً كتابَه «وَهْمَ الإله».

٤- كونُ هذه الشخصية لم تُفرَد ببحث مُستقِلٍّ حسَبَ اطِّلاع الباحث.

الدِّراسات السابقة:

بعد البحث في قواعد بيانات رسائل الجامعات، وسؤالِ مراكز البحث في الجامعات السعودية؛ كجامعة الملك سعود، وجامعة الإمام، وجامعة أُمِّ القرى، ومركز الملك فيصل؛ تَبيَّن لي أنه لا توجد دراسة مُفرَدة تناولت هذه الشخصيةَ وشبهاتِها ونقدها.

حدود البحث:

أطروحات «ريتشارد دوكينز» في الكتب والوسائل الإعلامية التي يستخدمها.

مشكلة البحث:

ربطُ شبهات الإلحاد المعاصر بشبهات الإلحاد القديم، ونقضُها نقضًا يتوافق مع دلائل الشرع والعقل والفطرة الإنسانية.

أهداف البحث:

١- التعريف بما يُسمَّى «الإلحاد المعاصر».

٢- بيان أهم أطروحات الشخصية المبحوثة «دوكينز» في الإلحاد المعاصر.

٣- نقدُ وتفنيد شبهات الإلحاد المعاصر.

منهج البحث:

سلكتُ في هذا البحث منهجَ الاستقراء والتحليل والنقد لكتب ومرئيات (ريتشارد دوكينز).

المبحث الأول: تعريف الإلحاد الجديد:

الإلحاد في اللغة: هو المَيْل. قال ابنُ فارس: (اللام والحاء والدال أصلٌ يدل على مَيْلٍ عن استقامة. يُقال: أَلحَد الرجلُ؛ إذا مال عن طريقة الحق والإيمان. وسُمِّي اللَّحْدُ لأنه مائل في أحد جانبَي الجَدَث. يُقال: لحَدتُ الميتَ وأَلْحَدتُ. والمُلْتَحد: الملجأ؛ سُمِّي بذلك لأن اللاجئ يميل إليه)(٣).

أمَّا في الاصطلاح؛ فتختلف تعريفاتُ الإلحاد بحسَبِ مفهومه عند كلِّ دِينٍ أو فِرْقة، وحسَب إطلاقه في كل زمن.

ففي التاريخ الإسلامي يُعرَّف الإلحادُ بالدِّين بأنه: (المُعانَدة بالعدول عنه، والترك له)(٤). ورُوِي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن: (الإلحاد هو التكذيب)(٥)، وعن قتادة -رحمه الله- أن قوله تعالى: {يلحدون} أي: يُشْرِكون(٦).

وفي التاريخ الأوربِّي يَنقُل الفيلسوفُ الفرنسي لالاند عن الفيلسوف فرانك صاحب كتاب «قاموس العلوم الفلسفية» قولَه: (ما مِن تهمةٍ كانت أكثرَ تداولًا من تهمة الإلحاد؛ ففي الماضي كان يكفي المرءَ حتى يُتَّهَم هذه التهمةَ ألَّا يُشاطِر الآراءَ السائدة والمعتقدات الرسمية في عصرٍ ما، مهما تكن فاحشةً أو حتى فاسقةً)(٧).

فكلُّ عصر له تعريفه حسَبَ سياق ذلك العصر واصطلاحِ أهله، فإذَنْ يُطلَق (هذا اللفظُ تارةً على إنكار وجود الله، وتارةً على إنكار علمِه وعنايته، أو قدرته وإرادته، ويكفي أن يُنكِر المرءُ أصلًا من أصول الدين، أو اعتقادًا من الاعتقادات المألوفة، أو رأيًا من الآراء الشائعة، حتى يُتَّهَم بالإلحاد.

فقد اتُّهِمَ سقراطُ بالإلحاد، وحُكِمَ عليه بالموت، بالرغم من قوله بوجود إلهٍ واحدٍ؛ وكذلك أفلاطون، وأرسطو، وابن سينا، وابن رُشْد، وديكارت، وإسبينوزا، وكانت؛ لم يَسْلَموا -على اختلافِ مذاهبهم- من تهمة الإلحاد؛ لمُخالَفتِهم آراءَ أهل زمانهم، وهذا كلُّه يدل على أن مفهوم الإلحاد يختلف باختلافِ تصوُّراتِ الناس واعتقاداتهم، فإذا كان المذهب مخالفًا لاعتقاداتهم عَدُّوه إلحادًا، وإذا كان موافِقًا لها عدُّوه دِينًا وإيمانًا.

فليس لهذا اللفظ -إذَنْ- في التاريخ معنى محدود ثابت؛ لاختلاف مفهومه

---

(٣) «مقاييس اللغة» (٥/ ٢٣٦).

(٤) «جامع البيان»، ابن جرير الطبري (١٥/ ٢٣٦).

(٥) المصدر السابق (١٠/ ٥٩٧).

(٦) المصدر السابق (١٠/ ٥٩٧).

(٧) «موسوعة لالاند الفلسفية» (١/١٠٧).

باختلاف الزمان والمكان، ولاختلاف حال العلماء من الجُهَّال)[٨].

أمَّا ما يَهُمُّنا في هذا البحث فهو ما يُسمَّى بالإلحاد الجديد، أو الإلحاد المعاصر (New Atheism)؛ الذي عرَّفه «معجم أكسفورد للإلحاد» بأنه: (مصطلحٌ يشير إلى حركة ثقافية تجمعها عمومًا وجهةُ نظرٍ قويَّةٌ مُناهِضةٌ للإيمان، تستند على ادِّعاءات عقائدية غيرِ مؤمِنة، أو اعتراضات أخلاقية على المؤسَّسات الدينية، تتعلق بالمعاداة الواضحة لليبرالية، التي تشمل عدمَ المساواة بين الجنسين. وأوَّلُ مَن صاغ هذا المصطلحَ هو الصحفي الأمريكي "جاري وولف" في ٢٠٠٦.

كما أن هذا المصطلح قائم على توقير العلوم الغربية، ومُعظَم الملحدين الذين ينتمون إلى الإلحاد الحديث يمكن تمييزهم على أنهم «إنسانيُّون»)[٩].

ويتميز الإلحاد المعاصر باتِّكائه التامِّ على العلم التجريبي فقط، (ويجب التفرقةُ بينه وبين إلحادِ عصرِ التنوير؛ فهو يتميز بالغزارة الفلسفية، بخلاف الإلحاد الجديد الذي يتجاهل الفلسفةَ، ويُركِّز على أطروحاتٍ مُشتقَّةٍ من مُعْطَيات العلم الطبيعي)[١٠]، مع أن الجميع يتفقون على إنكار الخالق، ولكن يختلفون في الدوافع. وسيأتي في العرض التاريخي شيءٌ من التمييز.

المبحث الثاني: عرضٌ مُوجَزٌ عامٌّ لتاريخ الإلحاد:

من خلال التعريف اللُّغوي -وهو المَيْل عن الاستقامة- نستطيع القول بأنَّ أوَّلَ الملحدين في التاريخ هو «إبليس»، عندما مال عن طريق الحق، وأعرض عن سبيل الرُّشد. وكلُّ مَن تنكَّب جادَّةَ الحق بعده فهو ملحدٌ غاوٍ عن الهدى والرشاد.

وأمَّا حسَبَ التعريف الاصطلاحي -وهو إنكارُ وجود الخالق؛ وهو ما يَعْنِينا في هذا البحث-، فإن التاريخ يحدِّثنا أن هذا المذهب دخيلٌ على الإنسانية، شاذٌّ عن بنائها الرُّوحي؛ كما يقول هنري برجسون[١١]: (لقد وُجِدتْ -وتُوجَد- جماعاتٌ إنسانية من غيرِ علومٍ وفنون وفلسفات، لكنْ لم تُوجَد قطُّ جماعةٌ بغير ديانة)[١٢].

فالحنينُ إلى الخالق، والبحثُ عن سُبُل مرضاته لدفع الشرِّ وجلب الخير - سِمَةٌ فطريَّةٌ في صميم تكوين الإنسان، لم تنفكَّ عنه ولن تنفكَّ.

و(**الحقيقةُ التي أجمع عليها مُؤرِّخو الأديان:** هي أنه ليست هناك جماعة إنسانية -بل أُمَّة كبيرة- ظهرت وعاشت، ثم مَضَتْ دون أن تفكِّر في مبدأ الإنسان ومصيره، وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه، ودون أن تتَّخِذ لها رأيًا مُعيَّنًا في هذه المسائل، حقًّا أو باطلًا، يقينًا أو ظنًّا، تُصوِّر به القوَّةَ التي تخضع لها هذه الظواهرُ في

---

[٨] «المعجم الفلسفي»، جميل صليبا (١/ ١١٩).

[٩] A Dictionary of Atheism

[١٠] «الإلحاد للمبتدئين»، د. هشام عزمي ص٢٤.

[١١] فيلسوف فرنسي، حائز على جائزة نوبل للآداب، تُوُفِّيَ عام ١٩٤١م.

[١٢] «الدِّين»، د. محمد عبد الله دراز ص٨٦.

نشأتها، والمآلَ الذي تصير إليه الكائناتُ بعد تَحوُّلِها)[١٣].

ولهذا نجد أنَّ مَن اتَّصَف بهذه الصفة هم قلَّةٌ على مدى التاريخ، وإنْ كانوا وُجِدوا في (زمن مبكِّر في تاريخ الإنسانية، ولكنه كان يمثِّل حالة قليلة ونادرة في كل المراحلِ التاريخية، وازداد انتشارُه وتَضخَّم حجمُه في القرون المُمثِّلة للفكر الحديث، وخاصَّةً القرنَ التاسعَ عشرَ منها)[١٤].

ولا شك أن الإلحاد لم يظهر فجأةً في الأوساط الأوربية، وإنما كان له مُمهِّدات من قِبَلِ فلاسفةٍ كانوا معابرَ للانتقال إليه -وإنْ لم يكونوا ملحدين في الأصل، أو لم يصرِّحوا بذلك-، وسأذكر أبرزَهم على سبيل المثال:

١- رينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠م):

هو مُؤسِّس الفلسفة الحديثة[١٥]، ومُوقِظُها من سُبَاتِها الذي بات قريبًا من ألف عام[١٦]؛ فقد دعا ديكارت إلى تطبيق المنهج العقلي في الفكر والحياة، فيقول عن العقل: (يشهد هذا بأنَّ قوَّةَ الإصابة في الحكم، وتمييز الحق من الباطل، وهي في الحقيقة التي تُسمَّى بالعقل أو النطق)[١٧].

و(بدأ ديكارت في تطبيق الشَّكِّ المنهجيِّ الذي تَعلَّمه من الفلسفة الشُّكوكية القديمة، وأخذت الفلسفةُ منذ ذلك التاريخ تتشكل وتُصاغ من الأسئلة التي يُثِيرها الشُّكوكيُّون)[١٨].

٢- سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧م):

وهو فيلسوف عقلي وإنساني، وقد طبَّق المنهجَ العقلي على الكتاب المقدَّس نفسِه، ووضع الأُسُسَ التي قامت عليها مدرسةُ النقد التاريخي التي ترى أنه يجب أن تُدرَس الكتبُ الدينية على النمط نفسِه الذي تُدرَس به الأسانيدُ التاريخية؛ أيْ على أساسِ أنها تراث بشري، وليست وحيًا إلهيًّا. ولهذا سَخِرَ من كثيرٍ من قصص وحكايات نصوص الكتاب المقدَّس[١٩].

وهذانِ نموذجانِ من نماذج الحركة الفكرية الممهِّدة في تلك الحِقْبة، ثم بعد تَتَالِي الانتقادات للكتاب المقدَّس، وانكشاف تحريفه للعامَّة والخاصَّة، بدأت الثقة تهتز بالدين وبالكنيسة، وخاصَّةً بعد ظهور المُكتشَفات العلمية.

يقول ريتشارد تارناس: (ثَمَّةَ اختراعاتٌ تِقْنيَّةٌ لعبت دورًا محوريًّا في إنشاء

---

[١٣] المصدر السابق ص٤٥.

[١٤] «ظاهرة نقد الدِّين في الفكر الغربي الحديث»، د. سلطان العميري (١/١٨٤).

[١٥] «الفلسفة الغربية»، برتراند راسل (٣/٧٣).

[١٦] «حلم العقل»، أنتوني جوتليب ص٣٧٦.

[١٧] «الإلحاد الحديث»، د. عبد الرحمن عواجي ص٨٢، و«مقال عن المنهج»، ديكارت ص١٠٩.

[١٨] «حلم العقل»، أنتوني جوتليب ص٣١٨.

[١٩] «الإلحاد الحديث»، د. عبد الرحمن عواجي ص٨٤.

الحِقْبة الجديدة:

- "البوصلة المغناطيسية" التي أتاحت المشروعات المِلاحيَّة العظيمة التي فتحت كوكبَ الأرض أمام الاستكشاف الأوربي.

- و"البارود" الذي أسهم في زوال النظام الإقطاعي، وصعود النزعة القومية.

- و"الساعة الميكانيكية" التي أحدثت انقلابًا حقيقيًّا في عَلاقة الإنسان بالزمن وبالطبيعة والعمل، فاصلةً ومُحرِّرةً بِنْيةَ الفعاليات الإنسانية عن هيمنة إيقاعات الطبيعة ومنها على التوالي.

- و"آلة الطباعة" التي أَفْضَتْ إلى زيادة هائلة في التعليم، جعلت الكلاسيكياتِ القديمة والمؤلَّفات الحديثة على حدٍّ سواءٍ في متناول أيدي جمهورٍ متزايدِ الاتِّساع باطِّرادٍ، وأنزلت ضربةً كبيرة باحتكار رجال الدِّين الطويل للتعليم!

كلُّ هذه الاختراعات كانت دائبةً بقوَّةٍ على التحديث، وصولًا للعَلْمَنة في جميع آثارها ... بل وأمام تمكين القوى العَلْمانية من تَحدِّي الكنيسة الكاثوليكية)[٢٠].

بعد كلِّ هذه الممهِّدات -وأكثرَ منها ممَّا لم أذكره- بدأ التصريحُ بإنكار الخالق، ومِن أبرز مَن صرَّح بذلك: الفيلسوفُ الفرنسي بارون دي هولباخ (١٧٢٣-١٧٨٩م)؛ وهو مِن أشهر الشخصيات المادِّيَّة في القرن الثامنَ عشرَ، التي كان لها أثر بليغ في تدعيم التمرُّد على الأديان؛ فقد كان مِن أشرس الملاحدة المادِّيِّين في الهجوم على الأديان، ومِن أعنفِهم ضِدَّها.

ففي عام ١٧٦٧م ألَّف كتابَه: «المسيحيَّة بعد أن أُمِيطَ عنها اللِّثامُ»، وفيه هاجَم المسيحيةَ بمنتهى الضراوة، وعَدَّها أصلَ كلِّ بلاء في الكون.

ثم واصَل هجومَه عليها -وعلى كلِّ الأديان- بعنفٍ أكبرَ في كتابه الشهير الذي ظهر سنة ١٧٧٠م بعنوان: «نظام الطبيعة»؛ وقد وُصِف مُؤلِّفُه بأنه أورد فيه (بيانًا نظريًّا مُحْكَمًا، ودفاعًا عن المذهب المادِّيِّ الذي يرى فيه إنجيلًا جديدًا لتنوير البشرية)[٢١].

ثم توالت بعده الهجماتُ على الدين، والتصريحُ بإنكار الخالق، والتحرُّر من التَّبَعيَّة للأديان، و(انتشر الإلحادُ منذ القرن التاسعَ عشرَ؛ حيث صِيغَتِ العلومُ الإنسانية وجذورُ العلوم البحتة على أُسُسِ الإلحاد بالله والتفسيرات المادِّيَّة، وانتشر انتشارًا لا سابقَ له في الجاهليات القديمة.

إلَّا أنَّه في أواخر القرن العشرين وأوائل الحادي والعشرين وُجِد شيءٌ من التَّديُّن في الأوساط الغربية الملحِدة، وشَهِدَ العالمُ سقوطَ الشيوعية، ثم بدأنا نشاهد عودةَ ما يُسمَّى باليمين المسيحي المتطرِّف؛ كلُّ ذلك بعد أن ذاقوا ويلاتِ البعد عن الدِّين،

---

[٢٠] «آلام العقل الغربي» ص٢٦٩.

[٢١] «ظاهرة نقد الدِّين في الفكر الغربي الحديث»، د. سلطان العميري (١/١٨٥)، و«تاريخ الفلسفة الحديثة»، وليم كلي رايت ص٢٣٧.

والعيش في ظُلْمة الإلحاد.

ومع وجود هذه الظواهر الجزئية، فقد ظلَّ الإلحادُ مُتغلغِلًا في تلك الأوساط، مُرتدِيًا عباءةَ العلم والحضارة)[٢٢].

هذا مُوجَز لتاريخ الإلحاد في الغرب، وقد بدأتُ به قبل تاريخ الإسلام لأنه أَلْصَقُ من حيث المفهومُ بموضوع هذا البحث؛ ذلك أن مفهوم الإلحاد في تاريخ الإسلام -حسَبَ علمي- لم يُطلَق أبدًا على إنكار وجود الله؛ فإنَّ هذا لم يُوجَد في الإسلام، وكلُّ مَن أُطلِقَ عليه وصفُ الإلحاد فأقصاه كان إنكارًا للنُّبوَّات والشرائع لا للرَّبِّ الخالق.

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي -رحمه الله-: (وإذا كان الإلحاد الغربي بنزعته الديناميكية هو ذلك الذي عبَّر عنه نيتشه حينما قال: "لقد مات اللهُ"، وإذا كان الإلحاد اليوناني هو الذي يقول: "إن الآلهة المُقِيمين في المكان المقدَّس قد ماتت"؛ فإن الإلحاد العربي هو الذي يقول: "لقد ماتت فكرةُ النُّبوَّة والأنبياء")[٢٣].

ومِن أشهر مَن عُرِفَ بالإلحاد في تاريخنا الإسلامي: ابنُ الرَّاوَنْديِّ، ومع ذلك فإنَّه لم يكن مُنكِرًا للباري -سبحانه-، يقول د. هيثم طلعت -وهو مِن المُهتمِّين بقضايا الإلحاد المعاصر-: (أمَّا في بلادنا الإسلامية فلم يُوجَد ملحدٌ واحد في تاريخ الإسلام كلِّه، وما يُروَى عن ابنِ الرَّاوَنْدي وابنِ المُقفَّع وابنِ سينا وأبي حيَّان التوحيدي وغيرِهم؛ فعلى قِلَّتِهم الشديدة لم يكونوا مُلحِدين الإلحادَ الاصطلاحيَّ المعاصِرَ، وإنَّما كانوا أتباعَ فلسفاتٍ باطنيَّة)[٢٤].

المبحث الثالث: تعريف الشخصية موضوع الدراسة:

(كلينتون ريتشارد دوكينز) هذا هو اسم صاحب الشخصية التي سنتناولها في هذا البحث، وهو بريطاني الجنسية، وُلِد في ٢٦ مارس عامَ ١٩٤١م، في نيروبي عاصمة كينيا، عندما كانت مُستعمَرةً من قِبَل بريطانيا؛ فقد كان والدُه يعمل هناك في أثناء الحرب العالمية الثانية.

وعندما بلغ الثامنة من عمره عامَ ١٩٤٩م، عاد أبوه إلى إنجلترا حيث تلقَّى تعليمَه هناك، ونشأ مسيحيًّا.

وفي عام ١٩٥٩م التحق بكلية بيلول بجامعة أكسفورد، وتَخرَّج بشهادة البكالوريوس في علم الحيوان عام ١٩٦٢م، وحصل على درجتَيِ الماجستير والدكتوراة بحلول عام ١٩٦٦م من الجامعة نفسِها تحت إشراف عالمِ السلوك الحيواني (نيكولاس تينبيرغن) الحائزِ على جائزة نوبل في الطِّبِّ.

---

[٢٢] «موسوعة العقيدة والأديان والفِرَق والمذاهب المعاصرة»، تصنيف: مجموعة من الأكاديميّين (٣٣٢/١).

[٢٣] تاريخ الإلحاد في الإسلام» ص٧.

[٢٤] «العودة إلى الإيمان» ص١١.

ثُمَّ عمل دوكينز مُحاضِرًا مساعدًا في علم الحيوان في جامعة كاليفورنيا في بيركيلي بالولايات المتحدة بينَ عامَيْ: ١٩٦٧م و١٩٦٩م، وعاد إلى جامعة أكسفورد مُحاضِرًا خلال السبعينات.

وفي عام ١٩٩٠م حاز رتبةَ "قارئ"(٢٥) الأكاديميَّةَ، ثُمَّ عُيِّن عام ١٩٩٥م أستاذًا لفهم الجمهور للعلوم، وحصل على الزمالة الفخرية للكلية الجديدة في أكسفورد.

وفي عام ٢٠٠٨م تقاعد دوكينز من الأستاذية، وأعلن عن خُطَطِه لكتابةِ (كتابٍ مُوجَّهٍ للشباب يُحذِّرهم فيه من الاعتقاد بالقصص المُضادَّة للعلم).

ثم بعد ذلك أصبح دوكينز في عام ٢٠١١م أستاذًا في الكلية الجديدة للعلوم الإنسانية؛ وهي جامعة خاصَّة جديدة في لندن(٢٦)(٢٧).

الجوائز:

حصل دوكينز على عدة جوائز، منها: جائزة الجمعية الملكية للأدب، وجائزة لوس أنجلوس تايمز الأدبية؛ بسبب كتابه «صانع الساعات الأعمى»، وذلك في عام ١٩٨٧م.

كما حصل في العام نفسه على جائزة الخيال العلمي التِّقْنيَّة لأفضل برنامج علمي وثائقي تلفزيوني للعام، عن حلقة: «صانع الساعات الأعمى» في برنامج «آفاق» لصالح قناة «بي بي سي».

وحصل دوكينز عام ٢٠٠٥م على جائزة شكسبير من مُؤسَّسة ألفريد توبفر - ومقرُّها هامبورغ- تقديرًا له على (تقديمِه الموجَز للمعرفة العلمية، وجعلِها سهلةَ الوصول).

كما رَبِحَ جائزةَ لويس ثوماس للكتابة عن العلوم عام ٢٠٠٦م، وجائزةَ كاتب العام لعام ٢٠٠٧م من المجرة للكتاب البريطاني.

وأُدرِجَ اسمُه من قِبَل مجلة (تايم) واحدًا من أكثر مئة شخصٍ مُؤثِّر في الناس حول العالم عام ٢٠٠٧م. وحصل أيضًا على لقب (أهمّ مُفكِّري العالَم لسنة ٢٠١٣م)، وغيرها من الجوائز.

حياته الشخصية:

تزوَّج دوكينز ثلاث مرَّات، وأنجب ابنةً واحدةً.

تزوَّج أوَّلًا زميلتَه عالمةَ سلوك الحيوان (ماريانا ستامب) في الكنيسة البروتستانتية في أيرلندا عام ١٩٦٧م، وانفصلا عام ١٩٨٤م.

ثم تزوَّج ثانيةً عام ١٩٨٤م، وانفصلا أيضًا.

ثم تزوَّج دوكينز من فنَّانةٍ في لندن، ثم أعلن الزَّوجانِ انفصالَهما وُدِّيًّا في عام ٢٠١٦م.

---

(٢٥) هي بمنزلة (أستاذ مُشارِك).

(٢٦)ريتشارد_دوكينز/https://ar.wikipedia.org/wiki

(٢٧) مجلة (أنا أُفكِّر)، العدد الثالث ص١٧.

وقد أُصِيبَ دوكينز بسكتة دماغية في ٦ فبراير ٢٠١٦م، لكنَّه تَعافَى منها.

مؤلَّفاته ومشارَكاته:

أَلَّف دوكينز حتى عام ٢٠١٧م أربعةَ عشرَ كتابًا، تُرجِمَ منها إلى العربية سبعةُ كتب، كان أوَّلها كتاب «الجين الأناني» عام ١٩٧٦م؛ وهو من أشهر كتبه، وقد تُرجِم إلى أربع وعشرين لغة منها العربية، وبِيعَ منه بالإنجليزية وحدها ما يزيد على ١٥٠.٠٠٠ نسخة.

وأعقبه كتاب «المظهر الممتد» الذي ظهر في عام ١٩٨٢م، ثم كتاب «صانع الساعات الأعمى» الذي يُسمَّى أيضًا: «الجديد في الانتخاب الطبيعي» في عام ١٩٨٦م؛ وهو مُترجَم للعربية.

ثم تلاه كتاب «النهر الخارج من عدن» عام ١٩٩٥م، ثم كتاب: «الصعود إلى جبل اللاحتمال» عام ١٩٩٦م، ثم كتاب: «تفكيك قوس قزح» عام ١٩٩٨م.

ثم جمَع بعد ذلك مقالاتِه المتفرِّقةَ وأصدرها عامَ ٢٠٠٣م في كتابٍ أسماه: «قِسِّيس الشيطان»، أو «العلم والحقيقة؛ تأمُّلات عن الأمل والأكاذيب والعلم والحب»؛ وهو مُترجَم للعربية، وبعده بعامٍ أصدر كتابه: «حكاية الجَدِّ الأعلى».

ثُمَّ أطلق كتابَه الأشهرَ: «وَهْم الإله» عام ٢٠٠٦م؛ وهو مُترجَم إلى إحدى وثلاثين لغةً[٢٨] منها العربية.

وحرَّر في عام ٢٠٠٨م كتابًا لأعظم علماء القرن العشرين بعنوان: «فصول من الكتابة العلمية الحديثة»؛ وهو مُترجَم للعربية.

وكتَب بعده: «أعظم استعراض على الأرض؛ أدلَّة التطور» عام ٢٠٠٩م، ثُمَّ: «سحر الواقع؛ كيف نعرف حقيقةَ الواقع؟» عام ٢٠١١م. وهذا الكتابانِ مُترجَمانِ للعربية.

وأخرج سيرةً ذاتيَّةً له من جزأينِ صدر أوَّلُهما عام ٢٠١٣م، والثاني عام ٢٠١٥م.

وختم بكتابٍ أسماه: «العلم في الرُّوح» عام ٢٠١٧م، جمع فيه مقالاتِه -ككتابِه: «العلم والحقيقة».

وقد فُرِّغتْ بعضُ حواراته في كتابٍ بعنوان: «حوارات سيدني»، وترجمه للعربيَّةِ قيسٌ العجرش.

وله عدَّة محاضرات ومناظَرات وبرامج وثائقية، من أشهرها: برنامج «جذر كلِّ الشرور» الذي سُمِّي فيما بعدُ بـ: «وَهْمِ الإله»، في القناة الرابعة البريطانية.

---

[٢٨] حسَبَ لقائه في البرنامج الإذاعي: "بوينت أوف إنكوايري" بتاريخ: ٨ ديسمبر ٢٠٠٧م، (الدقيقة ٣:٥٥) على الرابط

http://media.libsyn.com/media/pointofinquiry/POI_2007_12_7_Richard_Dawkins.mp3

وقام بتحرير عدَّة مَجَلَّات، كما عمل مُستشارًا تحريريًّا لبعض الموسوعات، وأُدْرِجَ كمحرِّر رفيع المستوى وكاتب عمود في مجلة (البحث الحُرِّ) العلمانية الإنسانية.

وقد أصبح دوكينز عضوًا في هيئة تحرير مجلة الشُّكَّاك (Skeptic) منذ تأسيسها، كما عمل رئيسًا لقسم علوم الحياة في الجمعية البريطانية للنهوض بالعلوم.

وفي عام ٢٠٠٤م قامت كلية باليول في جامعة أكسفورد بإنشاء "جائزة دوكينز" التي تُمنَح (للبحث المتميِّز في علم البيئة وسلوك الحيوانات التي يتعرض بقاؤُها للخطر من جَرَّاءِ الأنشطة البشرية).

وفي عام ٢٠٠٦م أنشأ دوكينز نفسُه مُؤسَّسةَ ريتشارد دوكينز للعقل والعلم لنشر الفكر الإلحادي.

هذه بعض أنشطته ومشاركاته التي قام بها.

الفصل الأول:

المبحث الأول: منهج الاستدلال عنده:

إن المتصدِّر للكتابة عن شخصيَّةٍ ما والرَّدِّ عليها، لا بد أن يستحضر الإنصافَ والعدلَ حتى وإنْ كان يختلف مع صاحب الشخصية في الأصول والفروع التي ينطلق منها؛ لذلك حاولتُ جاهدًا أن أتجرَّد من كلِّ خلفيَّاتي المعرفية نحو الشخصية موضوع الدراسة، وأن أنظر إليها دون أحكام سابقة؛ تحقيقًا للإنصاف، وإبعادًا للتحيُّز والإجحاف.

وإنَّني أعترف أنَّ كلَّ ما كان يُقال عن تناقُضِ الملحدين لم يجد منِّي قَبولًا كاملًا -وإنْ كنتُ أقبل أكثرَه-؛ لأنني أزعم أنَّ هناك مَن يبحث عن الحقيقة الكبرى -وهي وجود الباري سبحانه- بكلِّ صدق وشَغَفٍ، وسيُجبِرُه ذلك على أن يلحظ التناقضَ، فيَقِف ويراجع نفسَه.

ولكنَّني -في الحقيقة- لمَّا بدأت القراءة لهم فُوجِئتُ من كثرةِ تناقضِ بعضهم -ومنهم الشخصيةُ موضوع الدراسة-، حتى إنني حِرتُ في طريقةِ كتابة منهجه في الاستدلال؛ لاضطراب طريقته، وتباينِ مسلك تَلَقِّيه للمعلومة!

ولكنْ لا عَجَبَ؛ فهذه هي عاقبةُ تَنَكُّبِ الطريق المستقيم، وقد قال ابنُ تيميَّة -رحمه الله-: (إنَّك تجد أهلَ الكلام أكثرَ الناس انتقالًا من قول إلى قول، وجزمًا بالقول في موضعٍ وجزمًا بنقيضه وتكفيرِ قائله في موضع آخرَ)(٢٩)! هذا كلامُه -رحمه الله- عن أهل الكلام ووقوعِهم في التناقض، فكيف بمَن يتحدث عن قضية وجود الخالق -سبحانه-؛ وهي أعظم القضايا التي تَشغَل تفكيرَ الإنسان منذ وجوده على الأرض؟!

ولمَّا كانت أعظمَ القضايا؛ كانت أدلَّتُها أوضحَ الأدلة وأقواها، ومَن يَتعامَ عنها فسيقع -لا بدَّ- في تناقضاتٍ وإشكالاتٍ يقوده إليها الهوى والتشهِّي لا المنطقُ والبرهان.

---

(٢٩) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٥٠).

وعليه، فإنَّ مَن يتتبع منهجهم فلا بد أن يُعْيِيَه تصنيفُهم في منهج استدلال واضح: فإنهم تارةً يستخدمون المنطقَ والعقل، وتارة أخرى يستخدمون العاطفةَ، وأحيانًا يأخذون العلمَ، وأحيانًا أخرى يأخذون بخلافه إذا لم يوافق هواهم!

أوَّلًا: المنهج الخطابي العاطفي:

أُحِبُّ أن أبدأ بهذا المنهج؛ لأنه يكشف عن شيء كبير من أسلوب دوكينز، وطريقته في الاستدلال، ومن خلال فهمه سنفهم جُلَّ منهجه؛ لأنه مُلازِمٌ له في جميع كتاباته ومُخْرَجاته؛ حيث يتعمَّد دوكينز الكتابةَ بأسلوب سَلِسٍ قريب، بنوعٍ من البلاغة في إيصال المعلومة؛ ولا سِيَّما أنه -كما ذكرنا في التعريف به- حاصلٌ على جائزةٍ لجهوده في تبسيط العلوم.

وقد قال عنه آلان جرافن(٣٠)، في حديثه عن أحد كتبه: (أَوَدُّ أن أشير إلى أنَّ ما حقَّقه الكتابُ من نجاح على المستويينِ الشعبي والأكاديمي، لا يَنبُع فقط من وضوح الشرح، والاستخدام البديع لِلُّغة؛ وهما صفتانِ معروفتانِ عالميًّا في أعمال دوكينز ...).

والشاهدُ قولُه: (وهما صفتانِ معروفتانِ ... إلخ)، فهو إذَنْ يتعمَّد التيسير والسهولة بهدف الوصول إلى أكبر قدر ممكن، ومن خلال ذلك أيضًا يحاول استغلالَ عاطفةِ المُتلقِّي؛ وهذا جزءٌ من منظومة الاستدلال عنده، ويتبين بعِدَّةِ أمثلة:

١- (في الأغلب ليس هناك إلهٌ، لا تقلقْ، واستمتِعْ بحياتك). كُتِبتْ هذه العبارة على حافلات النقل العام، وفي الشوارع، وكان دوكينز يتحمَّل جزءًا كبيرًا من تكاليفها(٣١).

٢- أيضًا هناك إعلان لطفلينِ سعيدينِ يخاطب كلٌّ منهما والدَيْه بقوله: (مِن فضلِكما، لا تُصنِّفوني كمُتديِّن، دعوني أَكبَر لأختار لنفسي بإرادة حُرَّة)(٣٢).

٣- ويقول في كلامٍ له عن المرأة المسلمة، مُستفِزًّا للعواطف، ضاربًا على وَتَرِ الانفتاح على العالم، والتمتُّع بالنظر الواسع للحياة بنظرة قاصرة منه: (أحدُ أكثرِ المشاهد المُحْزِنة التي نراها في شوارعنا وساحاتنا هذه الأيَّامَ: هي لامرأةٍ مُتَّشِحةٍ بسَوادٍ لا شكلَ له، من قمَّةِ رأسها حتى أَخْمَصِ قدَمَيْها، ترى العالمَ من شَقٍّ ضيِّق)(٣٣).

٤- إيراده للقصص التي تَعرَّض أصحابُها إلى إيذاء نفسي بسبب مواقف مُعيَّنة؛ وذلك بغرض إثارة العواطف، وربطها بالدِّين -مع أنَّه يقول عن الحوادث الشخصية التي تَحدُث للناس: إنَّها

---

(٣٠) آلان جرافن: أخصائي السلوك الإسكتلندي، عالم الأحياء التطوُّري بقسم علم الحيوان بجامعة أكسفورد، وُلِد عام ١٩٥٦م، له كتابٌ بعنوان: «ريتشارد دوكينز: عالمٌ غيَّر أفكارَنا»، وكتاب «الإحصائيات الحديثة لعلوم الحياة».

(٣١) «خرافة الإلحاد»، د. عمرو شريف ص٣٤، و«ميليشيا الإلحاد»، عبد الله العجيري ص٤٠.

(٣٢) «خرافة الإلحاد»، د. عمرو شريف ص٣٤.

(٣٣) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٣٦٨.

قصص فردية[٣٤]-؛ مثل: (قصة المرأة الأربعينية التي تَعرَّضتْ للاعتداء الجنسي عندما كانت في السابعة من عمرها مِن قِبَل القِسِّ، وفي الوقت نفسه تقريبًا ماتت صديقتُها الصغيرة وذهبت إلى جهنمَّ لأنها كانت بروتستانتية).

وقبلها كان يُعلِّق على الأسئلة الموجَّهة إليه بقوله: (ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الاعتداء الجنسي شيء مُروِّع، لكنَّ حجمَ الأذى على المدى الطويل يمكن تَخيُّلُه أقلَّ من الأذى النفسي الذي يتعرَّض له الطفلُ جَرَّاءَ نشأته الكاثوليكية)، وعلَّق بعدها قائلًا: (الأذى النفسي يمكن أن يتجاوز الأذى الجسدي)؛ كلُّ ذلك لشحن النفوس ضدَّ الدِّين[٣٥].

٥- في بداية كلِّ فصلٍ من فصول كتابه «وهم الإله» يكتب عبارةً شاعريَّةً؛ ليَستدِرَّ بها العاطفةَ، ويمهِّد نفسيَّةَ القارئ[٣٦].

أوردتُ هذه الأمثلةَ تبيانًا لمنهجه في استغلال العواطف، وشحنِ النفوس تُجاهَ الدِّين دون دليلٍ يستطيع المرءُ أن يَتَّكِئَ عليه.

منهجه العقلي في الاستدلال:

يقول دوكينز في مقابلة تلفزيونية: (أنا أساهم في نشر العقلانية المعتمِدة على العلم، وإذا صادف أنَّ ذلك سيَتسبَّب في الإلحاد في النهاية؛ فلا مانعَ عندي، بل إنني أَدْعَمُه، ليس في نيَّتِي أن أُجبِر الناسَ على أن يكونوا ملحدين، ربما هذا ما فعلته الشيوعيةُ الدِّكتاتوريَّةُ-، ولا عَلاقة لي بما فعلته الدكتاتورياتُ من هذا النوع، فأنا أدعو فقط إلى تفكير عقلاني واقعي يستند إلى العلم، بالضبط مثلما نستند إلى أيِّ شيء آخرَ في حياتنا).

فقال له المقدِّمُ: لكنَّك ترغب في إقناع الناس أن يكونوا ملحدين.

فقال: (أنا أرغب في نشر الوعي والإدراك وَفْقًا لخطوات الحضارة الإنسانية التي تتقدم، ووَفْقًا للجدل المنطقي المدعوم بالأدلة العقلية التي يَقبَلها العقلُ ولا تسخر من قدراته)[٣٧].

بهذه العبارة وأشباهها التي يُكرِّرها دوكينز، وتحمل كمًّا كبيرًا من دغدغة المشاعر واستفزاز العواطف، يُلخِّص لنا دوكينز منهجَه العقلاني، وأنَّ هدفَه هو العقل والعلم، ولو كان ذلك على حساب الدِّين، وأنَّه لا يُجبِر الناسَ ليكونوا ملحدين، وإنَّما هدفُه فقط هو التفكير العقلاني.

وسأَعرِض بعضَ استدلالاته العقلية بعدَّةِ أمثلة يكون فيها بيانٌ لمنهجه العقلي - بإذن الله:

---

[٣٤] «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٨٩.

[٣٥] «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٣٢١، و«نظرة خلفَ السِّتار»، سامي الزين ص٩٣.

[٣٦] «نهاية حلم "وهم الإله"»، أ. د. أيمن المصري ص١٦٩.

[٣٧] «حوارات سيدني»، ترجمة: قيس العجرش ص١١٥.

١- **أكثر دليل عقلي يتباهى به دوكينز هو:** (إذا كان هناك إله؛ فمَن خلَق الإلهَ؟)[٣٨].

وعلى الرغم من أن هذا السؤال مُتعارِض مع بَدَهيَّات المنطق، كما أنه طُرِح منذ مئات السنين وتمت الإجابة عليه؛ إلَّا أنَّه بكل اعتزازٍ يُصِرُّ على أن هذا السؤال هو أحدُ أقوى الأدلة التي تُفحِم المؤمنين! وسنتعرض لمناقشة هذا الدليل في موضعه لاحقًا -بإذن الله.

٢- يرى دوكينز أن الملحد لا يتحمل عبءَ الدليل، بل المُطالَب بالدليل هو المؤمن؛ لأن المطالَب بالدليل هو الذي يَدَّعِي وجودَ شيء، أمَّا العكس فلا. ويُسمِّيها طريقةَ (عِبْءِ البرهان)؛ إذْ يَنقُل عن أحد الملحدين كما في قوله: (وقد شرحها برتراند راسل بشكل لطيف في مثاله عن إبريق الشاي السماوي؛ الكثيرون من الأرثوذكسيِّين يتكلمون وكأنَّ على المُشكِّكين أن ينفوا العقائدَ الشائعة بدلًا من أن يُبرهِنَها العقائديون، وهذا خطأٌ بالطبع.

لو أنني اقترحتُ بأن هناك إبريق شاي صيني بين الأرض والمرِّيخ، يدور حول الشمس بمدارٍ إهليلجي؛ فلن يستطيع أحدٌ أن يُبرهِن أنني مخطئ، سنأخذ بعين الاعتبار طبعًا بأن أُوضِّح بحرصٍ أن إبريق الشاي هذا هو من الصِّغَر بحيث لا نتمكن من رؤيته حتى باستعمال أقوى التلسكوبات.

ولكنْ لو قلتُ: بما أنَّ زعمي لا يمكن نقضُه؛ فإنني لا أقبل أن يَشُكَّ أحدٌ في صدقه. سيكون كلامي جِزافًا، ولكنْ لو كان وجودُ هذا الإبريق مُوثَّقًا في الكتب القديمة، ويُدرَس بقُدُسيَّةٍ كلَّ يومِ أَحَدٍ، ومغروسًا في رؤوس الأطفال في المدارس؛ فإنَّ مُجرَّد التردُّد في قَبول وجوده من شخصٍ ما، سيَضَعُه مع فئةِ غريبِي الأطوار، ويستحق اهتمامَ طبيب نفسي في العصر الحديث أو القاضي في أزمنةٍ خَلَتْ)[٣٩].

يقصد دوكينز بهذا: أن وجود الخالق لا يمكن البرهنةُ عليه، ولا يمكن نفيُه. وهذا -كما هو معلوم- دليلٌ (لا يحتاج نقضُه إلى كبيرِ عناءٍ، والكشفُ عن ما فيه من خللٍ في الاستدلال ظاهرٌ للعِيان؛ فإن هذا الاعتراض قائم على مُغالَطة منطقية ظاهرة، وأخطاء استدلالية بيِّنة ... فإن الإيمان بوجود الله ليس مُجرَّدَ فرض عقلي خالٍ من الأدلة والبراهين، وإنما هو إدراك عميق مُتجذِّر في النفوس الإنسانية، ومُعمَّق في وجدانهم وأرواحهم.

وهناك دلائل وبراهين عظيمة تدل على ذلك؛ فآثارُ وجود الله ظاهرةٌ في الكون، ومُتجلِّية في الآفاق، تدفع سليمَ العقل والفطرة إلى الإقرار بوجوده والإيمانِ بكماله؛ ولهذا كان الأصلُ فيهم الإيمانَ بوجود الله، وهو الغالب على حالهم في كل

---

[٣٨] «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص١١١، ١٢١، ١٢٢، ١٤٥.
مقطع بعنوان: (أفضل خمسة أسباب لعدم وجود إلهٍ)
ttps://www.youtube.com/watch?v=mHHM8P9YOxk "

[٣٩] «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٥٣.

المراحل التاريخية.

وأمَّا الإبريق الدائر في الفضاء؛ فهو مُجرَّد فرض عقلي لا يوجد أيُّ دليل يدل عليه، وليس لذلك الإبريق أيُّ أثرٍ في الواقع يدعو الناسَ إلى الإيمان به؛ ولأجل هذا كان الأصلُ في جنس الإنسان عدمَ الإيمان بذلك الإبريق، وعدمَ الالتفات إليه من حيث الأصلُ)(٤٠).

٣- يزعم أن تَعدُّد الآلهة والديانات ممَّا يجعل فكرةَ الخالق غيرَ صحيحة، وأنها نشأت مُتراكِمةً مع الزمن عبر تعاقب الأجيال؛ و(بما أن الأمر كله مبنيٌّ على تقاليدَ شعبية ورؤى شخصية، عِوَضًا عن أدلة ثابتة؛ فإنه ليس من المفاجئ أن يكون لنظرية الإله عدَّةُ إصدارات.

دارسو التاريخ الديني يعرفون عن هذا التطور لهذه السلسلة، الذي يبدأ بالرُّوحانيات القبلية البدائية، مرورًا بتعدُّد الآلهة كالإغريقيِّين والرومان وغيرهم، حتى الوصول للتوحيد في اليهودية ومُشتقَّاتها كالمسيحية والإسلام)(٤١).

(ورغم ما يحويه كلامُه من مقدمات خاطئة، ومسلَّمات ومصادرات لا برهان عليها)(٤٢)؛ فإن التاريخ والواقع يشهدانِ بخلاف زعمه؛ حيث إن تَعدُّد الآلهة لا يزال موجودًا، وفكرة التوحيد منذ الأزل كانت موجودةً مع وجود الإنسان، وقد قال عدد من الباحثين: إن التوحيد مُتقدِّم على كلِّ صُوَر الشِّرك(٤٣).

٤- الإيمان بالصدفة:

لدى دوكينز إيمان عظيم -يتنافى مع العقل- بقدرات الصدفة، وأنها من الممكن أن تُوجِد شيئًا من لا شيء، ما دام من الممكن حسابُه رياضيًّا؛ كما يقول: (المعجزة هي شيء يحدث ولكن على نحوٍ مفاجئ جدًّا، فلو أن تمثالًا رخاميًّا لمريمَ العذراء قام بالتلويح لنا بيده فجأةً؛ فينبغي أن نتعامل مع الأمر كمعجزة؛ لأن معرفتَنا وخبرتَنا تُخبِرنا بأن الرخام لا يتصرف على هذا النحو.

لقد تلَّفظتُ للتَّوِّ بالكلمات التالية: "عسى أن تُصِيبَني صاعقةٌ في هذه الدقيقة"، لو أن الصاعقة أصابتني فعلًا في الدقيقة نفسِها؛ فستُعَدُّ معجزةً، ولكن في الحقيقة فكلا الحادثتينِ لن يَتِمَّ تصنيفُهما علميًّا بأنها مستحيلة قطعًا، سيُقال فيها ببساطة: إنها بعيدةُ الاحتمال جدًّا ...).

إلى أن يقول مُوضِّحًا موقفَه من المثال الأول: (في حالة التمثال الرخامي، الجزيئاتُ في الرخام الصُّلْب تقوم باستمرارٍ بالتدافع ضِدَّ بعضها باتجاهات عشوائية، وتَدافُعُ هذه الجزيئاتِ المختلفة على هذا النحو يُلْغِي أثَرَ هذا التدافع؛ ولذا تبقى يدُ

---

(٤٠) «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث»، د. سلطان العميري (٥٤/٢).

(٤١) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٣٣.

(٤٢) «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث»، د. سلطان العميري (٦٤٥/٢).

(٤٣) «ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان»، د. عبد الله الشهري ص٣١.

التمثال في وضع ثابت، ولكن لو حصل بالصدفة المحضة أن جميع الجزيئات قامت بالتحرُّك في الاتجاه نفسِه في اللحظة نفسِها لَتحرَّكتِ اليدُ، ولو أنها بعد ذلك تحركت في الاتجاه المعاكِس لَعادت اليدُ إلى موضعها السابق؛ بهذه الطريقة فمن الممكن لتمثال رخامي أن يُلوِّحَ لنا، من الممكن أن يحدث الاحتمالات ضدَّ وقوع مُصادَفةٍ من هذا النوع مرتفعة على نحوٍ يفوق الخيالَ، لكنها ليست مرتفعةً على نحوٍ لا يمكن حسابُه إحصائيًّا -أحد الزملاء الفيزيائيّين قام بالتفضُّل بحسابه لي-؛ الرقم كبيرٌ بحيث إنَّ عُمرَ الكون كله سيكون قصيرًا جدًّا عن مُجرَّد كتابة الأصفار!

إنه لمن الممكن نظريًّا لبقرةٍ أن تقفز فوق القمر باحتمالٍ مُشابِهٍ، والنتيجةُ التي نريد التوصُّلَ إليها في هذه الحُجَّة: أن بإمكاننا حسابَ مناطقِ المعجزات غيرِ المحتمَلة بشكل أكبر بكثيرٍ ممَّا نتخيل أنه معقول)(٤٤).

وقد كرَّر المثالَ في كتابه «وَهْمِ الإله» أيضًا(٤٥)، ولو تعامَلْنا بهذه الطريقة مع الأشياء؛ (فكيف ستكون حالُ المعرفة الإنسانية البشرية؟ فالمبادئ العقلية مَحَلُّ تشكيكٍ، وما نستفيده من خبراتنا بالنظر في هذا الكونِ هو الآخَرُ محلُّ تشكيكٍ، وهو مشهد معرفي وعلمي شديد القَتامة، لا يلتزمه أحدٌ باطِّرادٍ في الحقيقة، وهو كافٍ في الكشف عن خَلَلِه العميق)(٤٦).

ثم أين الواقعيَّة في كلامه هذا؟ وهو القائل -كما في حديثه في بداية منهجه العقلي-: (أنا أدعو فقط إلى تفكير عقلاني واقعي(٤٧))!

لعلَّ في ما ذُكِرَ من أمثلة كفايةً لبيان منهجه العقلي.

منهجه العلمي في الاستدلال:

بالعبارة نفسِها التي قالها في منهجه العقلي في الاستدلال أَبتدِئُ هنا؛ إذْ قال: (أدعو فقط إلى تفكير عقلاني واقعي يستند إلى العلم)(٤٨)، وسأضرب عدَّةَ أمثلة لتبيان منهجه العلمي:

١- **يقول دوكينز:** إنَّ كَوْنًا بلا خالقٍ سيختلف عن كونٍ له خالقٌ؛ ولذا فإن من الطبيعي أنَّ مَن يَدرُس هذا الكونَ هم العلماء، وهم مَن سيعرفون هل هناك خالقٌ أم لا، (فإنَّ كونًا مع خالقٍ مُشْرِفٍ عليه سيكون حتمًا نوعًا مُغايِرًا للكون بدون خالق).

ثم يَرُدُّ على مَن قال: "إن العلم لا يستطيع الحكمَ في قضية وجود الله": (لماذا الحكمُ بأنَّ هذا ليس سؤالًا علميًّا؟) أي إنَّ إثباتَ وجود الخالق مِن عدمِه داخلةٌ في

---

(٤٤) «صانع الساعات الأعمى»، ريتشارد دوكينز ص٢٢٠، و«شموع النهار»، عبد الله العجيري ص١٩٦.

(٤٥) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٣٨٠.

(٤٦) «شموع النهار»، عبد الله العجيري ص١٩٨.

(٤٧) تقدم ذكره (صـ ٢٩).

(٤٨) تقدم ذكره (صـ ٢٩).

حدود العلم، وكونٌ بخالقٍ لن يكون كعشوائيَّةٍ عمياءَ، ولكنه يتناقض مع نفسه إذْ يقول في سياق كلامه: (لماذا لا يَحِقُّ لنا التعليقُ على الله كعلماء؟ ولماذا لا يكون إبريقُ الشاي ووحشُ السباغيتي(٤٩) الطائر منيعينِ من الشَّكِّ بالدرجة نفسِها؟)(٥٠).

فساوَى بين إبريق شاي مُعترضٍ ليس له أيُّ أثرٍ ووحشٍ مُخترَعٍ، وبين الخالقِ البيِّنةِ آثارُه بيانًا واضحًا لا لبسَ فيه! وبهذه الطريقة فإنه لا يبحث عن أثرٍ أو دليلٍ للخالق، وإنما يبحث عن خالقٍ مادِّيٍّ يتصور أنه سيجده مع بحثه، وأن العلم إنما يُثْبِته أو ينفيه. وهذا ممَّا لن يدركه العلمُ ولا غيرُه، حسَبَ منهج دوكينز؛ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٣].

٢- يَنقُل دوكينز تجربةً علمية عن أحد العلماء، كانت تكلفتُها: ٢.٤مليون جنيه إسترليني للتأكُّد من وجودِ خالقٍ أو عدمِه، وأسماها: "تجربة الدُّعاء الكبرى"؛ وهي أنه مع فريق البحث راقبوا مجموعةً من المرضى بعد أن قسموهم إلى ثلاث مجموعات، وطلبوا من آخرين أن يدعوا لهم، وأعطَوْهم أسماءَ الذين سيُدعَى لهم، والمجموعات الثلاث للمرضى كلهم سيخضعون للعملية الجراحية نفسها؛ وهي عملية الشريان التاجي، في سِتَّةِ مستشفَيات، وكان المرضى مُوزَّعين:

المجموعة الأولى: ستتلقى الدعواتِ من الداعين دون أن يكون لديهم علمٌ أنهم سيُدعَى لهم.

المجموعة الثانية: لم تَتَلَقَّ أيَّ دعوات، ولم يكن أعضاؤها يعرفون بذلك.

أمَّا الثالثة: فكانت لمعرفة التأثير النفسي الناتج عن معرفة المريض بأنَّ أحدًا ما يدعو له، فقد أُخبِروا بذلك.

ومع أن الأدعية رُفِعتْ في ثلاث كنائس؛ إلَّا أنَّ النتيجةَ كانت قاطعةً بأنه لا فرقَ بين مَن تَلَقَّوْا الدعواتِ، وبين مَن لم يَتلقَّوْها. أمَّا الذين كانوا يعرفون بأنهم سيُدعَى لهم؛ فقد كانت المفاجأة حدوثَ مُضاعَفاتٍ أكثرَ بكثيرٍ من الذين لم يعرفوا(٥١).

يريد دوكينز بهذه التجربة أن يُثْبِت أن الخالق غيرُ موجود، ولو كان موجودًا لأجاب دعاءَ الداعين! ورغم ما في هذه التجربة من السذاجة الواضحة في التفكير؛ إلَّا أنَّها (لا تختبر وجودَ الإله، لكن تختبر إحدى صفاته)(٥٢).

ولكن ينقطع العَجَبُ من هذا التفكير إذا عرَفْنا تَصوُّرَ دوكينز ومفهومَه عن الإله، وسيأتي في المبحث القادم -بإذن الله- تبيانُ ذلك.

---

(٤٩) (وحش السباغيتي الطائر): هو إلهُ ديانةٍ تَهكُّمِيَّةٍ تأسَّست سنةَ ٢٠٠٥م على يدِ خرِّيج الفيزياء "بوبي هندرسن"، وأسماها باستافاريانية احتجاجًا على قرار المجلس العلمي في ولاية كانساس بأمريكا اعتمادَ تدريسِ أطروحة التصميم الذكي مع نظرية التطور.

(٥٠) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٥٧، و«قطيع القِطَط الضَّالَّة»، سامي الزين ص٩٠.

(٥١) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٦٣.

(٥٢) «خرافة الإلحاد»، د. عمرو شريف ص٣٢٧.

ثم نقول أيضًا: لو فرضنا أنه كان هناك فرق في المجموعات، وظهر أثرٌ لهذا الدعاء؛ فهل سيُقِرُّ دوكينز بذلك؟ أَشُكُّ في هذا؛ إذْ إنَّه قال مرَّةً: (لِيَصْعَقْني البرقُ في هذه الدقيقة)، كما تَقَدَّم، وأَقَرَّ أن البرق لو صعقه فلن يَعُدَّه معجزةً؛ بل هي مُجرَّد صدفة(٥٣).

٣- تجربة القِرَدة:

عندما وقع دوكينز في أزمةٍ حول عُمر الكون، ومحدوديَّته لتكوين هذه الكائنات الموجودة على ظهر الأرض -إذْ إنَّ التطور يتطلب زمنًا طويلًا كي يُنتِجَ لنا الكائنَ الحيَّ الذي نشاهده الآن-؛ اخترَع مصطلحَ "الانتخاب الطبيعي التراكمي"(٥٤).

ثم إنه ضرب مثالًا لتوضيحه وبيان إمكانيَّته، وهذا المثال بناء على مثال سابق طرحه "توماس هكسلي"(٥٥) نصيرُ داروين الأوَّلُ، الذي يَدَّعِي أن مجموعةً من القِرَدة لو تُرِكتْ وقتًا كافيًا لِتَدُقَّ على مجموعة من الآلات الكاتبة؛ فإنها -بلا شكٍّ- ستكتب قصيدةً من قصائد شكسبير، وربما إحدى مسرحياته، بل ربما أعمال شكسبير كلها!

وقد لقي هذا البرهانُ من التسفيهِ بالأدلة العلمية العقلية والرياضية ما جعل سير أنتوني فلو(٥٦) يصفه بأنه كُومةٌ من النُّفايات(٥٧).

فقرَّر دوكينز أن يُجرِيَ تجربةً على جزء من مسرحية شكسبير، واختار هذه العبارة من المسرحية: "أظنُّها تُشبِه ابنَ عِرْس"، وفعلًا بَرْمَجَ الكمبيوتر بما يشبه الطابعَ العشوائيَ؛ لينظر كم يستغرق من مرحلةٍ كي يكتب الكمبيوتر العبارةَ بشكلها الصحيح، وكلُّ مرحلة هي بمثابة الجيل، علمًا أنه برمج الكمبيوتر أن يحتفظ بكلِّ حرفٍ يكون في موضعه الصحيح، ويعيد التجربة مرة أخرى مع احتفاظه بالحرف الصحيح في موضعه ليبنيَ عليه، وهكذا حتى وصل للعبارة المطلوبة في الجيل الثالث

---

(٥٣) تقدم ذكره (ص٣٣).

(٥٤) يشرح دوكينز الانتخابَ الطبيعيَّ التراكميَّ بأنَّه مِثْلُ غربلة عددٍ من الحصى، في كلِّ مرَّةٍ تحصل على عددٍ أقلَّ من الحصى وحجمٍ مُختلِفٍ، وفي النهاية ستكون نواتجُ الغربلة لدينا أحجامًا مختلفةً من الحصى بدقة كبيرة؛ أي إنَّ الكائن الحي يبتدئ من حيث انتهى الجيلُ الذي قبله، لا من البداية. انظر للمزيد: «صانع الساعات الأعمى»، ريتشارد دوكينز ص٧٣.

(٥٥) توماس هكسلي (١٨٢٥-١٨٩٥م): عالم بيولوجيا بريطاني، مُهتَمٌّ بالتشريح المقارن، كان أشدَّ المتحمِّسين لداروين.

ولا شك في خطأ نسبة برهان القردة إلى هكسلي؛ فالشائع أنه قد استخدمه في مناظرته الشهيرة في أكسفورد عام ١٨٦٠م، بينما لم تُعرَف الآلاتُ الكاتبةُ إلَّا عامَ ١٨٧٤م.

(٥٦) أنتوني فلو (١٩٢٣-٢٠١٠م): وُلِدَ لأبٍ من كبار رجال الدين المسيحي، وقد تَبَنَّى الإلحادَ منذ صباه، وصار من كبار فلاسفته، وعندما تجاوز الثمانين عامًا في ٢٠٠٤م أعلن أنه -بدافعٍ من الأدلَّة والشواهد العلمية- قد صار يؤمن بأن هناك إلهًا، ثم أصدر كتابًا في عام ٢٠٠٧م يشرح فيه أسبابَ إيمانه، أسماه: «هناك إله».

(٥٧) «خرافة الإلحاد»، د. عمرو شريف ص٣٤١.

والأربعين، وكرَّرها مرَّةً أخرى فوصل للعبارة في الجيل الرابع والستين، وثالثةً في الجيل الواحد والأربعين(٥٨).

وبهذا استنتج دوكينز أنَّ عُمرَ الكون كافٍ ليكون التطورُ في الكائنات كما هو عليه الآن، إذا كان يعمل بالآليَّة نفسِها التي عمل بها الكمبيوتر الذي بَرْمَجَه، مُتجاهِلًا في ذلك الأسئلةَ التي تَرِدُ في ذهن القارئ لكلامه؛ وهي: أن الكمبيوتر مُعَدٌّ مُسْبَقًا لاختيار العبارة المطلوبة، وقد كرَّر كثيرًا وهو يشرح التجربة قولَ: (العبارة المطلوبة)؛ ممَّا يوحي أنها مُعَدَّةٌ مُسْبَقًا، إذَنْ فمَن الذي أَعَدَّ التكوينَ المطلوبَ للكائن الحي؟!

بهذا المثال أختم الحديثَ حول منهج دوكينز في الاستدلال، رغم ما فيه من بُعْدٍ عن العقل والمنطق والعلم، وقد تَجَنَّبتُ الرَّدَّ على بعض الأمثلة: إمَّا لوضوحها، وإمَّا لأنه سيأتي الرَّدُّ عليها في مباحث لاحقة -بإذن الله-، والله تعالى أعلم.

المبحث الثاني: موقفه من الإله:

في البداية لا بد أن أشير إلى أن دوكينز في النهاية ابنُ بيئته، وينطلق من تكوين ثقافي وخلفية اجتماعية لا بد أنَّ لها تأثيرَها البالغَ في نفسه، وإنْ حاوَل أن يُظهِر أنه يَتحرَّر منها؛ ذلك أن دوكينز ينطلق في مفهومه عن الإله من مفهوم الكتاب المقدَّس؛ الذي يفهم منه دوكينز أن الإله عبارةٌ عن مخلوق ولكنه بشكل أضخم وبقوة أكبر، و(يتعامل دوكينز مع الإله باعتباره سوبرمان يَتَّسِم بكلِّ ما يَتَّسِم به الإنسانُ من صفات، فيَفرِض على الإله تَصوُّراتِه البشرية لكنْ على مستوى أكبر)(٥٩).

ويدل على ذلك سؤالُه الذي يطرحه في غالب محاضراته ولقاءاته وكتبه؛ وهو: إذا كان الخالق موجودًا؛ فمَن خلَق الخالقَ(٦٠)؟ ومن خلال سؤاله هذا يتبين مفهومُه عن الإله؛ إذْ يَعُدُّه جزءًا من المخلوقات التي كانت معدومةً وخُلِقَتْ، (أيُّ إلهٍ قادرٍ على تصميم أيِّ شيءٍ، يجب أن يكون على مستوى أعلى من التعقيد، ويتطلب بدَوْرِه تفسيرًا)(٦١).

وكذلك قوله: (لو كان موجودًا، وكشف عن نفسه؛ لوضع حكمًا نهائيًّا للجدل هذا، بشكلٍ لا يقبل الشكَّ)(٦٢).

وكذلك قوله: (الإله القادر على مُراقَبة كلِّ جُزَيْءٍ من الكون والتحكُّمِ فيه، لا يمكن أن يكون بسيطًا، وجودُه يحتاج لشرح ديناصوري ضخم ليُوفِّيَه حقَّه. ومِن وجهة نظرٍ بسيطة، فإن الأسوأ من ذلك هو أن الزوايا الأخرى من وعيِ الله مشغولةٌ بأعمالِ

---

(٥٨) المصدر السابق ص٣٤١، و«صانع الساعات الأعمى»، ريتشارد دوكينز ص٧٧.

(٥٩) «خرافة الإلحاد»، د. عمرو شريف ص٣٢٦.

(٦٠) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص١١١، ١٢١، ١٢٢.

(٦١) المصدر السابق ص١١١.

(٦٢) المصدر السابق ص٥٢.

وعواطفِ وصلواتِ ودعاءاتِ كلِّ إنسان)[٦٣].

ولا شك أن حُجَّة تعقيد الإله واهيةٌ؛ إذِ العِبْرةُ ليست بالتفسير البسيط أو المعقَّد، وإنما بمُرجِّح آخر: (حسنًا، دَعْنا نُفكِّر إذَنْ بالفيزيائيِّين الذين يحاولون تفسيرَ سقوطِ تُفَّاحةٍ، وهو مُجرَّدُ حَدَثٍ بسيط من ناحيةِ أنَّه يمكن فهمُه مِن قِبَل الأشخاص العاديين، لكنَّ تفسيرَه بقانون نيوتن للجاذبيَّة مُعقَّد جدًّا لمعظم الناس ...

دوكينز ببساطة مخطئٌ في نظرته المحدودة لِمَا يَحسَبه تفسيرًا ... لأن السبب في قَبول مِثْلِ هذه النظريات الفيزيائية المعقَّدة من قِبَل العلماء، ليس بسبب بساطتها، وإنما بسبب قوة تفسيرها؛ فالقوةُ التفسيرية مُهِمَّةٌ لمصداقية النظرية العلمية كأهمية البساطة، إنْ لم تكن أكثرَ أهميةً؛ فأحيانًا تُرفَض نظرياتٌ أبسطُ لأنها ليست ذاتَ قوة تفسيرية كافية، وكما قال آينشتاين: "التفسيرات يجب أن تكون بسيطةً قدرَ الإمكان، لكن ليست أبسطَ"، فالقوة التفسيرية تُرجَّح غالبًا على البساطة، وهي حقيقةٌ يبدو أن دوكينز لم يقدرها)[٦٤].

(ويرفض الفيلسوف (الملحد) توماس ناجل[٦٥] منهجَ دوكينز في النظر إلى الإله، فيقول: إن الإله الذي يتحدث عنه المؤمنون والملاحدةُ على السواء، ليس موجودًا مادِّيًّا مُعقَّدًا يسكن عالَمَنا الطبيعيَّ، كما يعرفه دوكينز؛ لذلك فإن تفسير وجود الإله بأنه احتماليَّةٌ نشأتْ نتيجةً لتَجمُّعِ ذرَّاتٍ بالصدفة في عمليَّةِ تَطوُّرٍ عشوائيّ؛ أمرٌ مرفوضٌ.

إن الإله الذي يدور حوله الاختلافُ والتنازعُ وجودٌ يختلف تمامًا عن عالمنا المادِّيِّ وعلومِنا الطبيعية، إنه وجودٌ غيرُ مادِّيٍّ، قادرٌ على إيجاد الوجود المادِّيِّ. إن التفسير الذي يتبنَّاه دوكينز دائمًا ليس هو التفسيرَ الوحيدَ، لكن هناك التفسير العقلي، والغائِيُّ، والقَصْديُّ، وكلها تَقِفُ وراء التفسير المادِّيِّ ووراءَ قوانين الطبيعة[٦٦]).

أمرٌ آخر؛ وهو أنه (ما إنْ قامت الثورة العلمية في أوربا بطرح التفسيرات الآليَّة لمُختلِف الظواهر الفيزيائية، حتى بدأ الناس ينظرون إلى هذه التفسيرات كبدائلَ للتفسيرات الغائيَّةِ التي تعكس إرادةَ الله ومشيئته، وكلما تَوصَّل العلمُ إلى تفسيرٍ لأحد الظواهر الطبيعية؛ انتقَص ذلك من رصيد الألوهية، وأضاف لرصيد العلم.

لقد تناسى الناسُ أن الجمع بين التفسير الغائي والتفسير الآلي هو طبيعةُ الأشياء، وصارت القاعدة السائدة في الغرب: أنَّ ما يمكن تفسيرُه بالعلم، لا يحتاج لإلهٍ. وأصبح هذا

---

[٦٣] المصدر السابق ص١٥١.

[٦٤] «أقوى براهين د. جون لينكس»، جمعه وعلَّق عليه م. أحمد حسن ص٤٢٤.

[٦٥] أستاذ الفلسفة والقانون بالولايات المتحدة، مُهتَمٌّ بفلسفة العقل والأخلاق والسياسة، وُلِد في صربيا عام ١٩٣٧م.

[٦٦] «خرافة الإلحاد»، د. عمرو شريف ص٣٣٢.

اللَّبْسُ هو السببَ الرئيسَ وراء نشأة الإلحاد المعاصر)(٦٧).

ودوكينز لا يبتعد كثيرًا عن فهمِ هؤلاء الناس؛ إذْ إنه يَقِفُ موقفًا مُعادِيًا للإله؛ حيث يُصِرُّ كثيرًا على تَكرار ما يُسمِّيه "إلهَ الفراغات"؛ أي إن المؤمنين يتمسكون بالإله في كلِّ شيء يجهلونه، ويَنسُبونه إليه؛ (في حالةِ عدمِ فَهْمِك لكيفية عملِ شيءٍ ما؛ لا تَهتَمَّ، استَسلِمْ وقُلْ: إنَّ اللهَ فعلها. لا تعرفْ ماهيَّةَ عملِ النبضات العصبية؟ حسنًا. لا تفهمْ كيفيَّةَ عملِ الذاكرة في المخِّ؟ ممتاز. هل التمثيل الضوئي عملية مثيرة للحَيْرة بتعقيدها؟ رائع. أرجوك لا تُتعِبْ نفسك بالعمل على أيٍّ مِن هذه الأسئلة، بل تَقَبَّلِ الأمرَ الواقع فقط، ونادِ اللهَ.

عزيزي العالِمَ، لا تعملْ على كشفِ أيٍّ مِن هذه الأسرار، بلِ اجلِبْهم لنا لنستخدمَهم، لا تبذر الجهل الثمين بالبحث العلمي بهذه الطريقة؛ نحن بحاجة إلى تلك الفراغات كملجأٍ أخير لله ...

وكما قال عالمُ الجِينات الأميركي جيري كوين في مراجعته لكتاب بيهي: "لو أراد تاريخُ العلم أن يقولَ لنا شيئًا واحدًا؛ فسيقول: إنَّنا لم نكن لنكتشفَ أيَّ شيء لو وضَعْنا لافتةَ «الله» على المواضيع التي نَجهَلُها، أو كما كتب أحدُهم: لماذا يُعَدُّ «الله» تفسيرًا لشيءٍ ما؟ هو ليس تفسيرًا، بل الأَحْرَى هو عجزٌ في التفسير ولا مبالاة، هو عبارة عن «لا أعرف» مُتنكِّرةٍ بالرُّوحانيات والطقوس)(٦٨).

هذا هو الإله الذي يَقِفُ دوكينز مُعادِيًا له، وكما قلنا: إنه يَنبُع من مفهومه عن الإله من داخل تكوينه البيئي وخَلْفيَّتِه المسيحية. ولا شك أنه أصاب في بعضِ ما قال؛ إذِ المسيحيةُ تُعانِي من خَلَلٍ كبيرٍ في مفهوم الإله والكون.

أمَّا المفهومُ الإسلامي فيختلف اختلافًا جذريًّا عن مفهوم المسيحية للإله والكون؛ حيث إنَّ له رؤيتَه ومنظومتَه المتكاملةَ عن الباري -سبحانه-، التي تملأ فراغَ أسئلة الإنسان، وحاجتَه للمعرفة بالمبدأ والكون والغاية والنهاية.

وقد قال دوكينز معترفًا: إنه لا يعرف كثيرًا عن الإسلام والقرآن(٦٩)؛ لذلك فإنه يقع تحت مفهومه الوحيد للإله، ويُعمِّمه على جميعِ الأديان، ولم يُكلِّفْ نفسَه بالبحث عن باقي مفاهيمِ الديانات الأخرى في العالم. وحقيقةً لا أستغرب ذلك منه؛ إذْ إنه أصلًا يزدري علمَ الأديان، ويصفه بأنه خارجُ نِطاق العلم(٧٠)، فكيف سيبحث في شيءٍ يرى -أصلًا- أنه غيرُ علمي ولا يَستحِقُّ الدِّراسةَ؟

ولو أراد الإنسان أن يَرُدَّ على كلامه في ما يُسمِّيه "إلهَ الفراغات"؛ فلن يَتعنَّى كثيرًا بجلب الاعتراضات الكثيرة التي تَرُدُّ على هذا المنطق الذي تكلم به، ولكن

---

(٦٧) المصدر السابق ص٣٢٥.

(٦٨) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص١٣٤.

(٦٩) «حوارات سيدني»، ترجمة: قيس العجرش ص١٠٨.

(٧٠) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٥٨.

سيقتصر على الردِّ عليه حسَبَ منطقه، وبالحُجَّة نفسِها التي طرَحها؛ وهي ما يذكره دائمًا عن الصدفة ودَوْرِها في تكوين الشيء مِن لا شيء؛ إذْ هناك أمر يغيب عنه -أو يَتعامَى عنه-؛ (وهو أنه لا يوجد شيءٌ اسمُه «صدفة»، إنما هو جهلُنا بالقوانين المؤثِّرة في الظاهرة[٧١]).

(ولنشرح ذلك بمثالٍ: إن احتماليَّة الحصول بالصدفة على الرقم ((٥)) عند إلقاءِ زهرٍ هو ١/٦؛ فهل ١/٦ شيء أو سبب؟! إن الحصول على ((٥)) بالصدفة تَقِفُ وراءه أمورٌ حقيقيَّة مثل: لدينا زهرٌ له ستة أوجهٍ، يمكن هَزُّ الزهرِ وقذفُه بقوة مُعيَّنة، شكلُ الزهر يسمح بالاستقرار على أحد الجوانب السِّتَّة بالاحتمالية نفسِها، وهكذا، إنَّ قولنا بالحصول على رقم ((٥)) بالصدفة هو أسلوب مُختصَر للتعبير عن مُحصَّلة هذه العوامل كلِّها، إن احتمالية ١/٦ ستتلاشى إذا غيَّرْنا من الأمور السابقة؛ كأَنْ نَقذِفَ بالزهر في فرنٍ شديد الحرارة فينصهر، أن نملأ ثقوبَ الزهر بمادَّةٍ تُخفِي الأرقامَ، وهكذا.

ولنصعد المثال السابق؛ لنتأكد أن الصدفة لا وجودَ لها في الحقيقة، هل تعلم أنك تستطيع الحصول على الرقم نفسِه عند إلقاءِ زهرَيِ الطاولة مرَّاتٍ مُتعدِّدةً، إذا ثبَّتَّ العوامل نفسَها: كقُوَّةِ إلقاءِ الزهرَينِ، وزاويةِ الإلقاء، وهكذا؟ إنَّ ذلك يعني أنَّ ما نَعُدُّه صدفةً إنما هو مُحصَّلةٌ لعوامل عديدة نَعجِزُ عن حصرها والتحكم فيها، ومِن ثَمَّ نُطلِق على مُحصَّلتها اصطلاحَ «صدفة»)[٧٢].

وبهذا إنْ قال: إن المؤمنين يؤمنون بـ"إله الفراغات"، ويَحتَجُّون به. فإننا نقول: إنك أيضًا -والملحدون كذلك- تؤمنون بالصدفة، ولا يوجد في الحقيقة شيءٌ اسمه «صدفة». وسأنقُل كلامًا يُوضِّح موقفَ المؤمنين من هذه النقطة.

قال الفيلسوف ريتشارد سوينبرن[٧٣]: (لاحِظْ أنني لا أفترض هنا إلهَ فجواتٍ، إلهًا دَوْرُه -فقط- تفسيرُ ما عجَز العلمُ الطبيعيُّ حتى الآن عن تفسيره، إنني أفترض وجودَ إلهٍ من أجلِ تفسيرٍ لِما صار العلم قادرًا على أن يُفسِّره، فأنا لا أذكر أن العلم الطبيعي يُفسِّر، لكنني أفترض وجودَ الله لتفسير هذه القدرة الحاصلة للعلم على التفسير، إن نجاح العلم في الكشف عن عُمْقِ هذا النظام الموجود في عالم الطبيعة يُشكِّل الأرضية الصُّلْبة للإيمان بأن هناك سببًا أكثرَ عُمقًا لوجود النظام)[٧٤].

---

[٧١] «الداء والدواء»، د. عمرو شريف، ح٥: (إله دوكينز)
https://www.youtube.com/watch?v=mHHM8P9YOxk

[٧٢] «خرافة الإلحاد»، د. عمرو شريف ص٣٣٨.

[٧٣] أستاذ الفلسفة البريطاني بأكسفورد، مُناظِرٌ كبير ضدَّ الإلحاد، مُهتَمٌّ بالدِّيانات، له ثلاثة كتب حول الإله والدِّين، وُلِد عام ١٩٣٤.

[٧٤] المصدر السابق ص٧٠، و«شموع النهار»، عبد الله العجيري ص١٣٩، و«العلم ووجود الله»، جون لينكس ص٨٢.

وأمرٌ ثالث: هو أن دوكينز أيضًا يقف موقفًا غريبًا يمكن أن نُطلِق عليه موقفًا احتماليًّا[٧٥] من وجود الله؛ حيث يقول: إن عددًا لا منتهيًا من الأشياء لا يمكن نفيُها أو إثباتُها. وذكر عددًا من الأمثلة، ثم قال: (الغرض من المبالَغة بهذه الأمثلة: هو التأكيد على أنه لا يمكن نقضُها، ورغمَ ذلك فلا أحدَ يُفكِّر بأن احتمال وجودها مُساوٍ لاحتمال عدم وجودها)[٧٦].

فهو -حسَبَ كلامه- لا يَقِفُ في المُنتصَف؛ بحيث يكون احتمالُ وجود الله مساويًا لاحتمال عدم وجوده، بل يُصرِّح بأنه يقترب من اليقين بعدم وجوده[٧٧]، فيَقفِز هذا السؤالَ المصيريَّ الذي يُلِحُّ داخل وجدان كلِّ إنسان إلى سؤالٍ عَبَثيٍّ لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر في الهدفِ المطلوبِ الوصولُ إليه؛ إذْ يسأل عن احتماليَّةِ وجود الخالق، لا عن وجوده، وكان المفترَضُ البحثَ عن الشواهد والبراهين على وجود الخالق ومدى صِحَّتِها!

وهو بهذه الطريقة (كطبيبٍ دُعِيَ لفحص إنسان تُوُفِّيَ، فقال لأهله: هناك احتمال ٥٠% أن يكون ميتًا، و٥٠% أن يكون حيًّا؛ ومِن ثَمَّ ينبغي عدمُ دفنه. أليس المنهج الصحيح أن يبحث الطبيبُ عن الشواهد المؤكِّدة للوفاة؟)[٧٨].

بعد كل هذا نَخلُص إلى أن مُؤدَّى موقفِ دوكينز من الإله كامنٌ في ثلاثة أمور هي -كما قال د. عمرو شريف-: (المُماثَلة، والتعارض، والاحتمالية. وإذا تَأمَّلْنا هذه العناصرَ الثلاثة التي يقوم عليها منهجُ دوكينز؛ نجد أنها تُجهِض أيَّةَ دراسة موضوعية لقضية الألوهية، ولا تسمح إلَّا بتَبَنِّي الإلحاد.

فعنصرُ التعارض يضعنا منذ البداية في مُفترَقِ طُرُقِ الاختيارُ فيه محسومٌ مُسْبَقًا: إمَّا العلم، وإمَّا الألوهية؛ إذْ لا يمكن عند دوكينز الجمعُ بينهما.

وينطلق دوكينز في عنصر الاحتمالية من مُقدِّمةٍ مُسبَقةٍ: هي أنه يستحيل إثباتُ أن هناك إلهًا؛ فلماذا نُضيّع وقتَنا وجُهدَنا من أجل قضيةٍ مقطوعٍ بالعجز عن إثباتها وتَوَقُّعِ الاحتمالية؟

دوكينز في مَطَبٍّ عسير؛ فهو لا يستطيع نفيَ احتمالية وجود الإله، إذَنْ يَظَلُّ بابُ الألوهية مُوارَبًا! هنا يطرح دوكينز العنصرَ الثالث: المُماثَلة؛ الذي سينفي شكوكَك ويستبعد كلَّ احتماليَّةٍ بوجود الإله، فالتصرُّفاتُ الإلهية لن تُماثِلَ تَصرُّفاتِنا البشريةَ؛ ممَّا يجعلك تُحاكِمُ الإلهَ عند كلِّ فعلٍ يخالف ما نتوقعه منه.

إن منهج دوكينز هذا يُشبِه المتاهةَ التي تقودك إذا دخلتَ فيها إلى نقطة البداية؛ إذْ يُمثِّل سياجًا حديديًّا يحمي العقيدة الإلحادية، ولا يُمكِّن العقلَ من اختراقه، ولا شك

---

[٧٥] «خرافة الإلحاد»، د. عمرو شريف ص٣٢٨.

[٧٦] «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٥٥.

[٧٧] المصدر السابق ص٥٣.

[٧٨] «خرافة الإلحاد»، د. عمرو شريف ص٣٢٩.

أن ريتشارد دوكينز هو أوَّلُ ضحايا هذا المنهج)[٧٩].

المبحث الثالث: نظرية التطور، ودَوْرها عنده في نفي الإله:

ما إنْ نشر داروين كتابَه «أصل الأنواع» عام ١٨٥٩م، حتى ولجت أوربًّا إلى عهد جديد من المفاهيم الفكرية تجاه الدين والحياة عمومًا، وتباينت النظرات تجاه هذا الطرح الغريب نحو مفهوم الخَلْق[٨٠].

وعلى الرغم من أنَّ الكتابَ -وما يحويه من مفاهيم، أُسْمِيَتْ لاحقًا بـ«نظرية داروين»، أو «نظرية التطور»- جاء بما يناقض تمامًا ما هو مكتوب في الكتاب المقدَّس عن خَلْق الكائنات، ودَوْر الخالق -سبحانه- في ذلك؛ إلَّا أنَّه قد حدث شيء لم يكن داروين نفسُه يقول به، بل كان يُصرِّح بخلافه -وكذلك النظرية أيضًا لا تحتمله-؛ ألَا وهو أن تكون نظريتُه بديلةً للإله!

وقبل أن أفصِّل في ما سأقوله تجاه دوكينز، سنُبعِدُ -قليلًا- وننظر للمسألة من منظور آخر؛ فعندنا في الإسلام أُصطلح على أنَّ التوحيدَ ثلاثةُ أقسام:

١- توحيدُ الرُّبوبيَّة؛ أي: إفرادُ الله بالخلق والتدبير والملك.

٢- توحيدُ الألوهيَّة؛ أي: إفرادُه -سبحانه- بالعبادة.

٣- توحيدُ الأسماء والصفات؛ وهو إفرادُه -سبحانه- بما سمَّى ووصف به نفسَه.

والكلامُ هنا في توحيد الرُّبوبيَّة فعندما يُقال: إنَّ الذي خلق الكونَ وأبدعه هو شيءٌ ما، نتج عن طريق التطور خلال مليارات السنوات؛ فإنه ينتقص مقدارُ الحاجة إلى الإله الخالق بشكل كبير -إنْ لم تنعدم-، فالذي صمَّم الكونَ وأبدعه على هذه الهيئة هو المستحِقُّ للتعظيم والإجلال؛ ولهذا سيسقط توحيدُ الربوبية، أو يتحول للذي أنشأ الكونَ وصمَّمه، ومِن ثَمَّ ستتوجه العبادة والإجلال والتقديس لهذا المصمِّم، فهو المستحِقُّ لذلك.

وهذا ما أفهمه -أنا شخصيًّا- من نظرة دوكينز للتطور، وجعلِها بديلًا للإله؛ فدوكينز ينافح ويدافع عن نظرية التطور دفاعًا شديدًا، ويصف كلَّ مَن لا يؤمن بها بأوصافٍ تجعل الجاهلَ يَتهيَّب من عدم قَبولها؛ كقوله مثلًا: (مِن الآمِن تمامًا القولُ بأنك إذا قابلتَ شخصًا لا يؤمن بالتطور؛ فهو إمَّا جاهل، أو غبيٌّ، أو مجنون، أو شرِّير. ولكنِّي أفضِّل عدمَ التفكير في ذلك)[٨١].

وبغَضِّ النظر عن صحة النظرية من عدمها -فهذا ليس محلَّ البحث-؛ فإنَّ

---

[٧٩] «خرافة الإلحاد»، د. عمرو شريف ص٣٣٢ بتَصرُّفٍ.

[٨٠] «كتب غيَّرت العالَم»، روبرت ب. داونز ص٢٦٦، ٢٧٧، وانظر أيضًا: «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث»، د. سلطان العميري (٥٢٠/١).

[٨١] ضمن مقالة في صحيفة (نيويورك تايمز) بعنوان: "حل لغز نظرية التطور" بتاريخ ٩/ ٤/ ١٩٨٩م، على هذا الرابط:
"http://www.biblicalcatholic.com/apologetics/p88.htm"

المَقصَد هو إثبات شدَّةِ حماسه لها، وقوَّةِ عباراته في الدفاع عنها؛ وسببُ ذلك أنَّ النظرية لو سقطت لَسقط منهجه كلُّه، بل منهجُ الملاحدة عمومًا؛ إذِ النظرية تُعَدُّ المُتَّكَأَ الصُّلبَ الذي يعتمدون عليه في إلحادهم.

وفي ذلك (يقول مايكل روس(٨٢)؛ وهو فيلسوفٌ تَطوُّريٌّ مُنصِفٌ شهير: يكمن الصراع في محاولة استغلال الكثيرين نظريةَ التطور لنفي وجود الإله، لقد صار التطور بالنسبة لهم ديانةً لا إلهيَّةً، ويُؤصِّل هذا المعنى فيلسوفُ العلوم الأشهرُ كارل بوبر قائلًا: حتى النظريات العلمية يمكن أن تصبح موضةً، يمكن أن تَحُلَّ محلَّ الدِّين، يمكن أن تصبح مُسلَّمةً غيرَ قابلة للنقاش، وهذا ما حدث مع نظرية التطور)(٨٣).

و(آرثر كيت؛ وهو دارويني مُتعصِّبٌ، يعترف بأنَّ هذه النظريةَ لا تزال حتى الآن بدون براهينَ، ويقول: إنَّ نظريةَ النشوء والارتقاء لا زالت بدون براهينَ، وستظل كذلك، والسببُ الوحيد في أننا نؤمن بها هو أنَّ البديلَ الوحيد الممكِن لها هو الإيمانُ بالخلق المباشِر؛ وهذا غيرُ واردٍ على الإطلاق)(٨٤).

أمَّا دوكينز فيقول: (التطور نحو التعقيد لا يأتي نتيجةً لسِمَةٍ مُتأصِّلةٍ نحوَ التعقيد المتزايد، وليس بسبب التحيُّز في الطفرات الوراثية، بل يأتي من الانتخاب الطبيعي؛ تلك العملية التي -كما نعرفها حتى الآن- تُعَدُّ الوحيدة القادرة على تفسير نشوء الأنظمة المعقَّدة من الأبسط.

نظرية الانتخاب الطبيعي بسيطة وصريحة، وكذلك الأصل الذي بدأَتْ منه، ومن ناحية أخرى فإنَّ التفسيرَ الذي تقدِّمه لنا عن التعقيد اللامتناهي أكثرُ من أيِّ شيء نطمح إلى تَخيُّلِه، وبدون إلهٍ يحتاج إلى تصميمها)(٨٥).

ومع الاستغناء بنظرية التطور عن الإله، فإنَّه لو وُجِدَ إلهٌ فسيكون حتمًا ضمن سلسلة التطور، فدوكينز يجعل كلَّ شيء في هذا الكون ناتجًا من نواتج التطور، بدءًا من الإله الخالق إنْ وُجِدَ -كما في زعمه- حتى أصغر المخلوقات، كما يقول: (ربما يكون هناك مُصمِّم خارق، ولكنْ في هذه الحالة لن يكون مُصمِّمًا أتى من العدم بالتأكيد، ولو كان كونُنا مُصمَّمًا -وإنْ كنتُ لا أُصدِّق هذا حتى الآن-، ومن بابِ أَوْلَى لمُصمِّم يقرأ أفكارَنا، ويعرف الغيبَ، ويسامح، ويُصحِّح؛ فإنَّ المصمِّمَ نفسَه يجب أن يكون نتيجةً لتراكم العديد من أعمال الروافع والمصاعد، ربما نسخة داروينيَّة في

---

(٨٢) مايكل روس: فيلسوف العلوم المشهور، وُلد عام ١٩٤٠م، متخصِّص في فلسفة البيولوجيا، وهو معروف جيِّدًا بأعماله المتخصِّصة في العَلاقة بين العلم والدين، ويُدرِّس حاليًّا في جامعة ولاية فلوريدا.

(٨٣) «خرافة الإلحاد»، د. عمرو شريف ص١٨٦.

(٨٤) «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»، إشراف: د. مانع الجهني ص(٢/ ٩٢٥).

(٨٥) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص١٥٣.

كونٍ آخرَ)(٨٦).

(المذهب الدارويني صحيح، ليس على هذا الكوكب فحَسْبُ، بل فيما يشمل الكون كله، حيثما يمكن أن توجد حياةٌ)(٨٧).

وليزداد تأكيدًا على جعل التطور بديلًا للإله، تَمسَّك بما يُسمِّيه «الميمات»؛ (وهي أطروحةٌ طوَّرها د. ريتشارد دوكينز، وأصلُها -أو أصلُ الفكرة- لجورج كريستوفر وليامز(٨٨))(٨٩)، وتعني كما قال دوكينز: (أن الانتقال الثقافي يُشبِهُ الانتقالَ الجينيَّ من حيث إنَّه قد ينشأ كشكلٍ من أشكال التطور)(٩٠). وقال أيضًا: هي (اسم يُجسِّد فكرةَ الوحدة القائمة على الانتقال الثقافي، أو الوحدة القائمة على التقليد)(٩١).

فإنْ طرح عليه أحدُهم السؤالَ المُشْكِلَ: (إذا كُنَّا نِتاجَ تطوُّرٍ طبيعيٍّ لا عَلاقة له بالخالق؛ فكيف إذَنْ نشأَتْ وتكوَّنتْ لدى الإنسان فكرةُ الإله والدِّين؟) - كانت «الميماتُ» مُسْعِفًا له في الجواب.

وقد قال -تَحسُّبًا لمِثْل هذا السؤال-: (وَلْنَأخذْ مثلًا فكرةَ «الله»، نحن لا نعرف كيف نشأت هذه الفكرةُ في الجمعية الميمية، لكنها نشأت على الأرجح عن تَحوُّلاتٍ مُستقِلَّة مُتعدِّدة، إلَّا أنَّها في مُختلِف الأحوال تبقى فكرة قديمة، لكن كيف يتضاعف هذا الميمُ؟ هو يتضاعف بالكلمة المكتوبة والمسموعة، مُتعاوِنًا مع الموسيقى الرائعة والفنِّ الباهر.

والسؤالُ هو: ما الذي يجعل لهذا الميم هذه القيمةَ المهمة لجهة البقاء؟ تَذكَّروا أن قيمة البقاء هنا لا تعني القيمة بالنسبة إلى الجينة في الجمعية الجينيَّة، وإنما القيمة بالنسبة إلى الميم في الجمعية الميمية، والمقصودُ تحديدًا بالسؤال هو الآتي: ما المميَّزُ في فكرة «الله» الذي يعطي هذه الفكرةَ الثباتَ والمقدرةَ على اختراق البيئة الثقافية؟

الواقع أنَّ قيمة البقاء بالنسبة إلى ميمِ «الله» في الجمعية الميمية، تنشأ عن الإغراء النفسي المهم الذي تنطوي عليه؛ فهذا الميمُ يقترح جوابًا مقبولًا ظاهريًّا للأسئلة العميقة والمُقْلِقة بشأن الوجود، كما يقترح أيضًا أن الظلم في هذا العالم قد يُصوَّب في الحياة الثانية؛ فـ«اليدُ الخالدة» تؤمِّن وسادةً لمظاهر قصورنا، وتبقى فعَّالةً لأنها خيالية كما الدواء الغُفْل الذي يصفه الطبيب، وهذه بعض الأسباب التي تجعل

---

(٨٦) المصدر السابق ص١٥٨.

(٨٧) «صانع الساعات الأعمى»، ريتشارد دوكينز ص١٤، و«الجينة الأنانية»، ريتشارد دوكينز ص٣١٢.

(٨٨) عالِم أمريكي (١٩٢٦-٢٠١٠م) مُتخصِّص في علم الأحياء التطوُّري، وهو أستاذ فخري لعلوم البيولوجيا في جامعة ولاية نيويورك في ستوني بروك.

(٨٩) «وهم الإلحاد»، أحمد الحسن ص٢٨٧.

(٩٠) «الجينة الأنانيَّة»، ريتشارد دوكينز ص٣٠٩.

(٩١) المصدر السابق ص٣١٣.

الأجيال المتعاقبة تنسخ فكرة «الله» من الأدمغة الفردية، فالله موجود سواءٌ أكان ميمًا يتميز بقيمة مهمة للبقاء، أو قوة يَسهُل نشرُها في البيئة التي تؤمنها الثقافة البشرية)(٩٢).

وأردف قائلًا أيضًا: (وأذكر كمثال خاصٍّ على ذلك جانبًا في العقيدة أثبت فاعِلِيَّتَه في تطبيق القوانين الدينية، وأقصد تحديدًا: التهديدَ بنار جهنم؛ فالعديد من الأطفال -وحتى بعض الراشدين- يعتقدون أنهم سيُلاقُون ألوانًا من العذاب بعد الموت إنْ هم لم يخضعوا للأوامر الكهَنوتية.

ولا شك في أن هذه تِقْنيَّةٌ مَقِيتةٌ للإقناع، سبَّبت الكثيرَ من الكرب النفسي خلال العصور الوسطى وحتى في أيامنا هذه، لكنها في الواقع تِقْنيَّةٌ شديدة الفعالية، وربما خطَّط لها مُتعمِّدًا رجلُ دينٍ مكيافيلِّيٌّ، مُتمرِّسٌ في تِقْنيَّات التلقين النفسي العميق، لكنني أشك في أن يكون رجال الدين على هذا القدر من الذكاء!

والأرجحُ أن تكون الميماتُ غيرُ الواعية قد ضَمِنت بقاءها بفضل تلك المزايا نفسِها للقسوة الزائفة التي تُحْسِن الجيناتُ استعراضَها، ففكرةُ نار جهنم هي -بكل بساطة- فكرة أبدية تتكرر ذاتيًّا بسبب تأثيرها النفسي العميق، وقد ارتبط هذا الميم بميم «الله»؛ لأن أحدهما يُعزِّز الآخرَ، ويساعد على بقائه في الجمعية الميمية.

وأذكر عضوًا آخرَ في مُركَّبِ الميمات الدينية هو الإيمان، والمقصود بالإيمان: الثقةُ العمياء بصعوبة الإثبات، حتى في ظِلِّ غيابِ أيِّ إثبات)(٩٣).

فهو بهذا الكلام يُغلِق بابَ النقد والحِجاج حول النظرية؛ إذْ إنَّ مَن يؤمن بإلهٍ فهو نِتاجٌ أو ضحيَّةٌ لميمات التطور التي تمنعه من رؤية الحقِّ، وتجعله يؤمن بلا إثبات.

هذه هي وجهة نظره -حَسَبَ رأيي- حول نظرية التطور، ودَوْرِها في نفي الإله عنده. والله أعلم.

الفصل الثاني:

المبحث الأول: الاستغناء بالعلم:

(المقصودُ بالاستغناء بالعلم: الاعتقادُ بأنَّ العلم التجريبي قادرٌ على الإحاطة بكل الحقائق الكونية، وأنه يستطيع أن يكفيَ الإنسانَ في تأسيس كل الأنظمة الاجتماعية والسياسية والنفسية والأخلاقية التي تُسيِّر حياتَه، وأن البشر لم يعودوا في حاجة إلى أيِّ مصدرٍ آخرَ للمعرفة أو الأنظمة مع وجود العلم؛ فقد أغناهم العلمُ التجريبي عن كل المصادر الفلسفية والدينية وغيرها التي كانوا يعتمدون عليها.

فالعلم هو المصدر الوحيد للمعرفة، وهو الميزان المتفرِّد في الحكم على كل الحقائق، وهو المِنْظار الأوحد الذي يمكنه الكشفُ عن كل الأسرار في الكون، وهو

---

(٩٢) المصدر السابق ص٣١٣.

(٩٣) المصدر السابق ص٣٢٠.

القاعدة المعتمَدة في بناء كل الآراء والمواقف.

والشيءُ الذي لا يمكن كشفُه عن طريق العلم فهو لا حقيقة له ولا وجود، وكلُّ ما خالَف العلمَ؛ سواءٌ كان من الأمور الدينية أو الفلسفية أو الأخلاقية أو غيرها؛ فإنه يجب إنكارُه والحكمُ عليه بالبطلان والفساد؛ لكونه خالَف المصدرَ المعرفي المحقَّق، والمنهجَ العلمي الواعيَ)[٩٤].

هذا من ناحية المقصود بشُبْهةِ "الاستغناء بالعلم". أمَّا قولُ دوكينز في ذلك؛ فإنه يؤكِّد بأنَّ العلماء (هم مَن تَخصَّصوا في اكتشافِ ما هو حقيقي بشأن العالم والكون)[٩٥].

كما يُصرِّح كذلك -بشكل مباشر وغير مباشر- بعدم أهمية الدين، وأن العلم كافٍ في الاستغناء عنه، فيقول مثلًا: (الخلوقيُّون يبحثون بشغفٍ عن فراغاتٍ في معارف ومفاهيم العصر، وبمُجرَّدِ ظهورِ ما يبدو كحلقةٍ مفقودةٍ فإنه يُفترَض بأن الله يجب أن يملأها بطبيعة الحال. ما يُقلِق رجالَ الدين المُفكِّرين مثل باهنهوفر[٩٦]: هو أنَّ هذه الفراغات بدأت تَصغُر مع تَقدُّمِ العلم، و«الله» في هذه الحالة مُهدَّدٌ بعدم وجودِ أيِّ شيءٍ يفعله، أو أيِّ مكانٍ يختبئ فيه)[٩٧].

وقال: (إن عواطف وأفكار الإنسان تظهر من خلال عمليات متشابكة شديدة التعقيد في المُخِّ، والملحدُ في هذه الحالة -بنظر الفيلسوف الطبيعي- هو شخصٌ لا يؤمن بأن هناك شيئًا ما وراء العالم الطبيعي الفيزيائي، وليس هناك مِن خالقٍ مُتفكِّرٍ ما وراء الطبيعة، يَتصنَّت من وراء الكون، ليس هناك رُوحٌ تبقى بعد بلاء الجسد، ولا مُعجِزاتٌ، لكن هناك الآنَ بعضُ الظواهر الطبيعية التي لم نفهمها بعدُ، وسنتمكن في المستقبل من تقديم تفسيراتٍ لهذه الظواهر غير المفهومة بشكل كامل باستخدام القوانين الطبيعية، إنَّ معرفتَنا لأسباب تكوُّنِ «قَوْسِ قُزَح» لا يُقلِّل ذلك من روعته وجماله، هذا هو العلم)[٩٨].

وفي فصلٍ أسماه: "الفجوة المُهِمَّة جدًّا"، طرح خلاله أن الفراغ الذي كان يملؤه الدينُ أصبح غير ضروري، وأن العلم يَسُدُّ كلَّ تلك الفراغات، وذكر عدَّةَ أمثلة لذلك، منها: التفسير، والحَثُّ، والعزاء، والإلهام.

قال: (خلال عصور مختلفة لَعِبَ الدينُ أربعةَ أدوار رئيسة في حياة الإنسان؛ وهي: تفسير، وحَثٌّ، وعزاء، وإلهام. تاريخيًّا فقد طمَح الدين لتفسير وجودِنا،

---

[٩٤] «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث» د. سلطان العميري (٤٣٠/١).

[٩٥] «العلم والحقيقة»، ريتشارد دوكينز ص٤١٨.

[٩٦] ديتريش باهنهوفر (١٩٠٦-١٩٤٥م): قِسٌّ ألمانيٌّ، عالمُ لاهوتٍ، عضوٌ مُؤسِّسٌ في كنيسة الاعتراف.

[٩٧] «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص١٢٧.

[٩٨] المصدر السابق ص١٦.

والطبيعةِ من حولنا، والكونِ الذي وجَدْنا أنفسَنا به، دَوْرُه هذا في أيامنا هذه قد تَوَلَّاه العلمُ بشكل كامل)(٩٩).

ولتبيينِ كلامه بشكل أوضح، قال عن العزاء وكيفية إحلال العلم بديلًا عن الدين للقيام بهذه المهمة: (حان الوقتُ لنواجه الدَّورَ المهمَّ الذي يلعبه الدين في عزائنا، والتحدِّي الإنساني -فيما لو لم يوجد الدينُ- لإيجاد شيءٍ يَحُلُّ محلَّه، العديدُ من الناس الذين يعترفون بأنه ربما لا يوجد إلهٌ، وأنه ليس ضروريًّا للأخلاقيات، يرجعون بما يظنون أنه الورقة الرابحة: الزَّعمِ بحاجةٍ نفسيَّةٍ أو عاطفيَّةٍ لإلهٍ، لو رميتَ بالدين بعيدًا؛ يسألون بعصبيَّةٍ: ما الذي ستَضَعُه محلَّه؟ ما الشيء الذي ستُوَفِّره للمرضى على فراش الموت، أو المفجوعين الباكين، أو المجرمين المعزولين عن المجتمع؛ الذين يَعُدُّون اللهَ صديقَهم الوحيد المُتبقِّيَ؟)(١٠٠).

ثم قال: (العزاء -وَفْقًا للمعجم اللغوي- هو تخفيف الحزن أو القلق النفسي ... عندما يَعْلَق شخصٌ على جبل بارد في الليل؛ فإنه ربما يجد العزاءَ في كلب السانتبرنارد الكبير ... طفلٌ يبكي يمكن أن يُعزَّى بضمَّةٍ مِن سواعدَ قوية، وبكلمات هادئة تَهمِس في أذنه)(١٠١).

ثم يُعقِّب بقوله: (كيف يمكن أن يُقارَن الدينُ مع العلمِ مثلًا في تأمينِ هذينِ النوعينِ من العزاء؟ لننظرْ إلى الصِّنف الأول، فمِن المعقول جدًّا أنَّ ذراعَ الله القويَّةَ -حتى ولو كانت خياليَّةً تمامًا- تستطيع العزاءَ بنفس طريقة ذراعَيْ صديقٍ أو كلب السانتبرنارد، لكن بالطبع يمكن للطِّبِّ العلمي أن يُعطِيَ عزاءً بشكل عامٍّ أكثرَ فعاليةً من ذلك)(١٠٢).

وقال أيضًا: (لو أنَّ موتَ «الله» سيترك خلفَه فجوةً؛ فإنَّ كلَّ امرئٍ سيملؤها بطريقته الخاصَّة. طريقتي الخاصَّةُ تحتوي على جُرْعة كبيرة من العلم؛ المَسْعَى الأمينِ والمُنتظِمِ للوصول إلى الحقيقة عن العالم الحقيقي)(١٠٣).

هذا من ناحية، أمَّا من ناحية أخرى فإنه يعتقد أن العلم والدين مُتضادَّانِ، ولا يمكن الجمعُ بينهما: (كرَجُلِ علمٍ، فأنا أحمل العَداءَ للتطرُّف الديني(١٠٤)؛ لأنه يقوم بالإساءة

---

(٩٩) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٣٥٢.

(١٠٠) المصدر السابق ص٣٥٧.

(١٠١) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٣٥٩.

(١٠٢) المصدر السابق ص٣٦٠.

(١٠٣) المصدر السابق ص٣٦٧.

(١٠٤) لا يقصد دوكينز بالمعنى الحرفي التَّديُّن المُتطرِّف فقط، بل يقصد جميعَ أنواع التديّن؛ إذْ يضع الجميعَ في سلَّة واحدة مُعتدِلَهم ومُتطرِّفَهم. ودليلُ ذلك في أكثرَ من عبارةٍ قالها عن المعتدلين [يُنظر: «وهم الإله» ص٣٠٧]، بل إنَّه قد أفرد فصلًا في كتابه «وهم الإله» أسماه: (كيف يفتح الاعتدالُ الدِّينيُّ البابَ واسعًا للتطرُّف؟).

للمشاريع العلمية بشكل متواصل، إنه يُعلِّمنا أن لا نُغيِّر رأينا، ولا يريد لنا أن نتعلم المعلومات المثيرةَ المتوفرة للمعرفة، إنه يُقوِّض العلمَ ويستنزف الفكر)(١٠٥).

بل إن الدين يُعادِي العلمَ ويخشاه؛ لذا يَقِفُ ضِدَّه: (قد قلتُ سابقًا: إنني لو كنتُ مُتدينًا؛ كنتُ سأخشى بالضرورة من نظرية التطور، بل سأذهب إلى أبعدَ من ذلك، سأخشى من العلم في عمومه أن يُفهَم على الوجهة الصحيحة؛ ذلك لأنَّ النظرة العلمية للحياة هي الأكثرُ إثارةً والأكثرُ استجلابًا للدهشة أكثرَ مِن أيِّ معنى آخر، وهو أمر على العكس تمامًا من الخيال الديني المُفتقِر لدهشة العلم)(١٠٦).

بعد طرح الشبهة التي يتبنَّاها دوكينز، ومن خلال عرضه، يتضح أنَّ مُلخَّص شبهته هو في طريقة فهمِه للدين؛ إذْ يعتقد أن الدين مبنيٌّ على حاجة الإنسان لتفسير الظواهر الكونية، وتسليةِ خاطره عند حدوث الكوارث والمصائب وما شابَهها، وإنْ حَلَّ شيء آخر يمكن أن يقوم بهذه المهمة؛ فلا داعيَ للدين.

الرَّدُّ عليه:

لا شك أن مِن مقاصد الدين الإجابةَ على كثير من أسئلة الإنسان الغريزية، وتقديمَ العزاء والمواساة له في مصائبه، لكنها ليست الغايةَ الكبرى من الدين، بل إن هناك ما هو أعظمُ من ذلك وأَجَلُّ؛ أَلَا وهو توحيدُ الله -سبحانه وتعالى- وإفراده بالتعبد والخضوع، وهذه هي الغاية العظمى التي بعث اللهُ لها الرُّسُلَ، والمهمة الأولى لهم.

قال الباري -سبحانه-: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾[النحل:٢]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ٢٥﴾[الأنبياء:٢٥].

ثُمَّ بعد التوحيد تأتي المنظوماتُ التعبُّدية والأخلاقية، كما في حديث مُعاذ بن جَبَلٍ ﵁ قال: بَعَثَني رسولُ الله ﷺ فقال: ((إنَّكَ تأتي قومًا مِنْ أهلِ الكتاب، فادْعُهُمْ إلى شَهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنِّي رسولُ اللهِ، فإنْ هم أطاعوا لذلك؛ فأَعْلِمْهم أنَّ اللهَ افترَضَ عليهم خمسَ صلَواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فإنْ هم أطاعوا لذلك؛ فأَعْلِمْهم أنَّ اللهَ افترَضَ عليهم صَدَقةً تُؤخَذُ مِن أغنيائِهم فتُرَدُّ في فُقَرائِهم، فإنْ هم أطاعوا لذلك؛ فإيَّاكَ وكَرائِمَ أموالِهم، واتَّقِ دعوةَ المظلومِ؛ فإنَّه ليس بينَها وبينَ اللهِ حِجَابٌ))(١٠٧).

فالإيمانُ بالله ووجوده، والخضوعُ له بالتوحيد والإخلاص؛ هو أوَّلُ درجات الإيمان بالأديان، وبدونِ ذلك لا يمكن قَبولُ أيِّ دين، هذه هي مهمة الأديان العظيمة؛ إذْ لم تُشرَع الشرائعُ وتُرسَل الرُّسلُ وتُنزَل الكتبُ لتفسِّر للإنسان طريقةَ عمل الحركات الميكانيكية في الكون وقوانينها، أو حركة الأفلاك ودورانها، وإنما تأتي هذه عَرَضًا، وليست المقصودةَ في المقام الأول.

---

(١٠٥) المصدر السابق ص٢٨٧.

(١٠٦) «حوارات سيدني»، ترجمة: قيس العجرش ص٦٥.

(١٠٧) مُتَّفَقٌ عليه.

ومع ذلك فإن الدين يَقِفُ داعمًا للعلم في جميع فروعه، كما يقول -سبحانه-: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ويقول -عزَّ مِن قائلٍ- حاثًّا لعبادِه: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

هذا من جانبٍ، أمَّا من جانبٍ آخرَ؛ فإنَّ دوكينز يقول: (الخلوقيُّون يبحثون بشغفٍ عن فراغاتٍ في معارف ومفاهيم العصر). والحقيقةُ أن هذه دعوى تدل على عدم فهمٍ لطبيعة نظر المُتديِّنين للأمور، وأيضًا يمكن قلبُها على صاحبها.

فأمَّا عدمُ فهمه؛ فإنَّ دوكينز لا يُفرِّق بين القانون ومُنْشِئِ القانون، والسببِ والمُسبَّبِ؛ فإن المؤمنين لا يقولون: إن الله هو الذي يُحرِّك الأشياءَ بشكل مباشِر. بل يُدرِكون أنه -سبحانه- وضع القانونَ والأسبابَ التي تُنظِّم عملَ الكون، وَفْقَ الحكمة التي أرادها، والسُّنَنِ التي فرضها. وهذا واضحٌ؛ ففَرْقٌ بين القانون ومُنشِئِ القانون، فدَوْرُ العلم وحدودُه: في اكتشاف آليَّةِ عملِ القانون فقط، لكنه يَعجِز عن الوصول إلى ذات مُنشِئِ القانون أو كُنهه.

و(تَعقُّلُ كونِ الله تعالى هو الفاعلَ في هذا الكون وبين وجود الأسباب ليس غريبًا في الفضاء الإسلامي، بل هو معنى مُصرَّح به كثيرًا في القرآن الكريم، بذكرِ أسباب كثيرٍ من الظواهر الطبيعية؛ قال ابنُ القيِّم -رحمه الله-: "ولو تَتَبَّعْنا ما يفيد إثباتَ الأسباب من القرآن والسُّنَّة؛ لَزاد على عشرة آلاف موضع، ولم نَقُلْ ذلك مُبالَغةً، بل حقيقةً"[١٠٨])[١٠٩].

وللإيضاح أكثرَ سأنقل -لاحقًا عند الكلام عن عجزِ العلم عن تفسيرِ كلِّ شيءٍ- مَثَلًا ضربه جون لينكس، أسماه: «كعكة الخالة ماتيلدا».

وأمَّا القول بأنه يمكننا قلبُ كلامه عليه؛ فإنه يقول -كما تَقدَّم-: (وسنتمكن في المستقبل من تقديم تفسيراتٍ لهذه الظواهر غير المفهومة بشكل كامل باستخدام القوانين الطبيعية). وبهذا نجده يقع في ما يَتَّصِف به المُتديِّنون من وجهة نظره؛ حيث إنهم -بزعمِه- يبحثون بشغفٍ عن الفراغات في المعارف ليملؤوها بالله. فها هو أيضًا -حينما لا يجد جوابًا لكثير من غوامض الكون- يلجأ إلى القول بأن العلم سيُجِيبُ عن ذلك في المستقبل، فأنتج لنا بذلك ((علمَ الفراغات))، بدلَ ((إلهِ الفراغات))؛ ليَنسُبَ له كلَّ ما يجهله، فطريقةُ تفكيره لم تختلف عن طريقة التفكير التي نسَبها للمُتديِّنين، وعابهم عليها، وسَخِرَ منهم لأجلها[١١٠].

أمَّا في قوله بأن العلم سيقضي على الأديان، وأنه سيصبح الكاشفَ للغوامض، وأنه الوحيد الذي مِن خلاله تَتَّضِح الحقائقُ؛ فإنَّ هذا القول يحوي جملةً من الأغلاط:

---

[١٠٨] «شفاء العليل»، ابن القيِّم ص١٨٩.

[١٠٩] «شموع النهار»، عبد الله العجيري ص١٣٨.

[١١٠] «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث» د. سلطان العميري (٤٥٦/١).

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

أوَّلُها: أن هذه الدعوى دعوى حالمِةٌ، يَتمنَّاها دوكينز ثم يُصدِّقها، أمَّا الواقع والمنطق فلا يمكن أن يقبل مِثلَ هذا الكلام؛ إذْ لا يوجد دليلٌ على أن العلم هو السبيل الأوحد لمعرفة الحقيقة -ونحن نطلب الدليلَ وَفْقَ منهجه؛ فهو القائل مادحًا العلمَ قادحًا في الدين: (العلم يؤسَّس ابتداءً وَفْقًا لأدلَّةٍ قابلةٍ للإثبات، بينما يفتقر الإيمانُ الدينيُّ لهذا الامتياز)[111]- ولو وُجِدَ دليلٌ فإنه سيكون ضِدَّ القائلين بالاستغناء بالعلم؛ إذْ هذا الدليل إمَّا أن يكون خارجًا عن العلم، أو داخلًا في حدوده، فإنْ كان خارجًا فقد ثبَتتِ الحقيقةُ بدون الحاجة إلى العلم، وإنْ كان داخلًا فيه فقد استُدِلَّ للعلم بالعلم، وهذا خطأ منهجي كبير[112].

وأيضًا كيف للعلم أن يُجِيبَ عن أسئلة الغاية من وجود الإنسان وسؤال الخير والشر، ولماذا الخيرُ حَسَنٌ والشَّرُّ قبيحٌ، وما إلى ذلك من قَبِيل هذه الأسئلة التي تخطر ببالِ كلِّ إنسانٍ، فلا يمكن للعلم أن يُجِيب عليها حتى ولو بعد حينٍ؛ إذْ إنها تقع خارجَ نطاقه، فهو يعتمد على التجربة والقياس، وهذه الأمورُ خارجة عن هذا النطاق.

وثَمَّ مثال لطيف ضربه جون لينكس لإيضاح المسألة، أسماه: «كعكة الخالة ماتيلدا»، قال: (لعلَّ مثالًا بسيطًا يساعدنا أن نقتنع بمحدوديَّةِ العلم، فَلْنَتخيَّلْ أنَّ خالتي ماتيلدا خبزت كعكةً جميلة، وأننا أَخَذْناها لمجموعةٍ من أعظم علماء العالم لتحليلها، وبحُسْباني مُغرَمًا باتِّباع الإجراءات والقواعد، طلَبتُ منهم شرحًا للكعكة، فانصرفوا جميعًا إلى العمل:

علماءُ التغذية: سيُخبِروننا بعدد السُّعْرات الحرارية التي تحتويها الكعكةُ، وأثرِها الغذائي.

وعلماءُ الكيمياء الحيوية: سيخبروننا بتركيب البروتينات، والدهون، وغيرهما من العناصر التي تحتوي عليها الكعكةُ.

والكيميائيُّون: سيتحدثون عن العناصر المُكوِّنة للكعكة، وروابطها الكيميائية.

والفيزيائيُّون: سيتمكنون من تحليل الجُسَيمات الأوَّليَّة للكعكة.

وعلماءُ الرياضيَّات: سيُقدِّمون لنا -طبعًا- مجموعةً من المُعادَلات العبقرية التي تَصِفُ سلوكَ تلك الجُسَيمات.

والآنَ بعد أن قدَّم لنا هؤلاء الخبراءُ وصفًا شاملًا للكعكة، كلٌّ حَسَبَ تَخصُّصِه العلمي؛ هل يمكننا أن نقول: إنه أصبح لدينا شرحٌ كامل للكعكة؟

المُؤكَّدُ أننا حصَلْنا على وصفِ كيفيَّةِ صُنع الكعكة، وكيفيةِ اتِّصال عناصرها المتنوِّعة بعضِها ببعضٍ، ولكن هَبْ أنَّني سألتُ هذه المجموعةَ من الخبراء سؤالًا أخيرًا: لماذا صُنِعتِ الكعكةُ؟ فستكشف الابتسامةُ العريضة على وجه الخالة ماتيلدا أنها تعرف الإجابةَ؛ لأنها هي مَن صنَعتِ الكعكةَ، وقد صنَعتْها لغرض.

---

[111] «حوارات سيدني»، ترجمة: قيس العجرش ص٢٠٠.

[112] «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث» د. سلطان العميري (٤٤١/١).

ولكنَّ كلَّ علماء العالم في التغذية، والكيمياء الحيوية، والكيمياء، والفيزياء، والرياضيات لن يتمكنوا من إجابة السؤال، والاعترافُ بعجزهم عن الإجابة لا يُقلِّل من شأنِ علومهم، فتَخصُّصاتُهم التي يمكنها التعاملُ مع الأسئلة المُتعلِّقة بطبيعة الكعكة وتركيبها؛ أي التي تُجيبُ عن أسئلةِ «كيف» - لا يُمكِنها أن تُجِيب عن أسئلةِ «لماذا»؛ التي تتناول غرضَ صُنع الكعكة)(١١٣).

وفي هذا أيضًا يقول الملحدُ برتراند راسل -وهو من أشدِّ مناصري العلم-: (معظمُ المسائل التي لا يستطيع العلمُ أن يُجِيب عنها، التي تستثير اهتمامَ العقول المتأمِّلة أكثرَ ممَّا يستثيرها أيُّ شيء آخر؛ أن تكون من القَبِيل الذي لا يستطيع العلمُ أن يُجِيب عنه ... ومن أمثلة هذه المسائل ما يلي:

- أيكون العالمُ مُنقسِمًا إلى عقل ومادَّة؟ وإنْ كان كذلك؛ فما العقلُ وما المادَّةُ؟ هل العقل تابعٌ للمادَّة أم إنه ينفرد بقوى خاصَّة به؟
- أفي الكون وحدةٌ تربط أجزاءه وهدفٌ يَنشُده؟ هل يتطور الكون ساعيًا نحو غاية مُعيَّنة؟
- أحقًّا هنالك في الطبيعة قوانينُ، أم أننا نؤمن بوجود القوانين في الطبيعة إرضاءً لرغبتنا الفطرية في النظام؟
- **تُرَى هل يكون الإنسان كما يراه عالمُ الفلك:** قطعةً ضئيلةً من الكربون المَشُوب مخلوطًا بماء، يزحف عاجزًا على كوكب صغير غيرِ ذي خطر؟ ...
- هل للعيش أسلوب شريف وأسلوب وضيع، أم إن أساليب العيش كلَّها عَبَثٌ لا يختلف فيها أسلوبٌ عن أسلوب؟ وإنْ كان هنالك أسلوب من العيش الشريف؛ فما عناصرُه، وكيف لنا أن نحياه؟
- أَلَا بُدَّ للخير أن يكون خالدًا لكي يكون جديرًا عندنا بالتقدير، أم الخير حَقِيقٌ مِنَّا بالسعي وراءه حتى إنْ كان الكون صائرًا إلى فناء محتوم؟
- هل ثَمَّةَ ما يجوز تسميته بالحكمة، أم إن ما يبدو أمام أعيننا حكمةً إنْ هو إلَّا حماقةٌ تَهذَّبتْ إلى الدرجة القصوى من التهذيب؟

تلك أسئلةٌ لا تستطيع الجوابَ عنها في المعامل)(١١٤).

فهو يقول هذا الكلام رغمَ تَعصُّبِه الشديد للعلم؛ إذْ هو الذي يُكرِّر في أكثر من موضعٍ أن العلم هو السبيل الوحيد للمعرفة: (إن الذي يَعجِز العلمُ عن اكتشافه، لا يستطيعُ البشرُ معرفتَه)(١١٥). والأمثلة على هذا كثيرة.

بل إن دوكينز نفسَه تناقَض حين تكلَّم عن الأخلاق -وهو باب واسع اضطرَب فيه كثيرًا-؛ فقد صرَّح بقوله: (ليس لدى العلم مناهجُ لتقرير ما الذي يكون أخلاقيًّا ...

---

(١١٣) «العلم ووجود الله»، جون لينكس ص٧١.

(١١٤) «تاريخ الفلسفة الغربية»، برتراند راسل (٩/١).

(١١٥) «الدين والعلم»، برتراند راسل ص٢٤٣.

لا يستطيع العلم أن يُخبِرنا إنْ كان الإجهاضُ خطأً ... ولا يستطيع العلم أن يُخبِرنا إنْ كان استنساخُ إنسانٍ كامل خطأً)(١١٦).

وهو مُحِقٌّ في ذلك؛ إذِ العلمُ يَعجز أن يتجاوز حدودَه كما في مسألة الأخلاق، ومن هنا يبدأ التناقضُ؛ إذْ لا بد للإنسانية من نظام مُتجاوِز لحدودهم، يضبط لهم معيشتَهم الحياتية فيما يُحقِّق لهم السلامَ والعدل.

بل إنه يُثِير العَجَبَ في كلامٍ له بالغٍ في التناقض، نَصُّه: (ليست كل القواعد المُطلَقة نابعةً من الدين، وبالرغم من ذلكَ فمن الصعب أن ندافع عن الأخلاقيَّات المُطلَقة على أُسُسٍ غير دينية)(١١٧). وكلامه هذا يحتوي على إشكالات أخرى يُصرِّح بها في كتبه ولقاءاته؛ كمشكلة بناء القاعدة الأخلاقية للإنسان ومناقَضتِها للإلحاد(١١٨)، ولكننا لسنا بصَدَدِ ذلك؛ إذِ الكلامُ هنا مُتوجِّهٌ إلى قوله: إنَّنا يمكننا الاستغناءُ بالعلم.

لعلَّ في ما أورَدْناه كفايةً وبيانًا للخلل الذي تتضمنه رؤيةُ دوكينز للعلم والدين، وفي ختام هذا المبحث بَقِيَ نقطتانِ أودُّ أن أشير إليهما:

النقطة الأولى: أن حاملي لواء العلم في المجتمع العلمي، منهم مَن يفتقر إلى النزاهة والأمانة العلمية؛ حيث وُجِدَ مِن بعض العلماء ما قد يوجد عند أيِّ طائفةٍ تنتمي إلى تَخصُّصٍ ما؛ كالتعصُّب، والمُحاباة، والعنصرية.

و(حين ظهرت نظرية الانفجار العظيم، وأحدثت قلقًا لدى العلماء المنكرين لوجود الله؛ كتب جاسترو مُعلِّقًا على شعورهم ذلك فقال: «إنَّ في ردود فعلِهم لشاهدًا لطيفًا على الموقف الذي يَتَّخِذه العقلُ العلمي -وهو عقل يُفترَض أن يكون في غاية الموضوعية- تُجاهَ دليلٍ يكشف عنه العلمُ نفسُه، يكون مُصادِمًا للمعتقَدات التي نعتنقها في مهنتنا؛ يتبين من هذا أن العالم يتصرف كما يتصرف كلٌّ مِنَّا حين تصطدم معتقداتُه مع الدليل، ينتابنا الضِّيقُ وندَّعِي بأن ليس هنالك من صدام، أو نُخْفِيه بعباراتٍ لا معنى لها»)(١١٩).

النقطة الثانية: هي عدم الاتفاق على ما هو علمي وما هو غير علمي؛ ولذا فمن الصعب حصرُ المعرفة في شيء لم تَتبيَّن حدودُه، وما يدخل فيه وما ليس داخلًا فيه بشكل واضح.

وما داموا (لم يَتَّفِقوا على تحديدِ ضابطٍ مُتقَنٍ يُميِّز بدقَّةٍ بين ما هو علمي وما ليس بعلمي، وهي قضية محورية في دعواهم، ومع ذلك وقع بينهم اختلافٌ

---

(١١٦) «العلم والحقيقة»، ريتشارد دوكينز ص٦٦.

(١١٧) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٢٣٤.

(١١٨) للاستزادة انظر: «شموع النهار»، عبد الله العجيري ص٦٦، ٦٧.

(١١٩) «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث» د. سلطان العميري (٤٩٨/١)، و«الخالق والفلكيون»، جاسترو ص١٥، ١٦ بواسطة: «الفيزياء ووجود الخالق»، جعفر شيخ إدريس ص٩٣.

واضطراب شديد في ضبطها:

- فبعضهم جعل ذلك راجعًا إلى إمكان التحقُّق التجريبي، كما فعل أتباعُ الوضعية المنطقية.
- وبعضهم جعل ذلك راجعًا إلى إمكان التكذيب التجريبي.
- وبعضهم ذكر غيرَ ذلك.

ومُحصَّلُ ما انتهت إليه جهودُهم: أنهم لم يُقدِّموا قيدًا مُنضبِطًا يفصل بين ما هو علمي وما ليس بعلمي، وإنما كثُر الجِدال بينهم واستمر كثيرًا.

ومن أشهر مَن أثار هذه القضية: "ستيفن ماير" أستاذُ التاريخ وفلسفة العلوم في جامعة كامبردج؛ فإنه ذكر في سياقِ نقدِه للعلموية أنه «من ناحية تاريخية، قد فَشِلتْ محاولاتُ إيجادِ ثوابتَ منهجية تَمُدُّنا بالشروط الضرورية والكافية للتمييز بين العلم الصحيح والعلم الكاذب»(١٢٠)، فمِن الصعب حصرُ المعرفة في العلم التجريبي. والله أعلم.

المبحث الثاني: شبهته في الغيبيَّات:

إن الإيمان بالغيب ركيزة من ركائز الإيمان الأساسية في العقيدة الإسلامية والأديان الأخرى، بل إن (أصل الإيمان هو الإيمان بالغيب)(١٢١)، ولا يصحُّ إيمانُ امرئٍ بدونه. وكذلك فإنَّ أركان الإيمان في حقيقتها إيمانٌ بالغيب وتصديق به؛ ولذا فإن الله -سبحانه وتعالى- جعله في كتابه أوَّلَ صفات المتقين، فقال -عزَّ مِن قائلٍ-: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [سورة البقرة: ١-٣]، وما ذاك إلَّا لعظيم أهميته وجلالة مكانته في الشريعة.

والمقصود بالغيب -كما قال ابنُ عباس رضي الله عنهما-: (الغيبُ كُلُّ ما أُمِرتَ بالإيمان به ممَّا غاب عن بصرك)(١٢٢)؛ لذا فإن أساس الإلحاد مبنيٌّ على جحود الغيب وإنكار الإيمان.

وفيما يَخُصُّ دوكينز، فإنه بإلحاده قد أظهر تَبرُّؤَه من الإيمان بالغيب ضِمْنيًّا، ولكنه لم يَكْتَفِ بذلك بل أعلنه في كتبه ولقاءاته؛ تأكيدًا لبراءته منه، وإمعانًا في جحوده له، وكتابُه «وهمُ الإله» يشهد بذلك؛ إذْ يقوم على أن الإله وَهْمٌ وفكرةٌ لا وجود لها إلَّا في الأساطير، وأن الذي ينبغي أن يكون: هو أن يرفض الإنسانُ هذه الخرافاتِ، ويعيش الواقعَ دون خيالات وتَوهُّمات أن وراء هذا الوجود شيئًا ما نجهله هو مَن صنَع الكونَ.

يقول دوكينز: (العنوان الذي اخترتُه لهذا الكتاب «وَهْمُ الإله» لا يرمز لإلهِ آينشتاين ...

---

(١٢٠) المصدر السابق (٤٨٧/١)، و«العلم ودليل التصميم في الكون»، عدَّة مُؤلِّفين ص١٦٥.

(١٢١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٣٢).

(١٢٢) «تفسير القرآن للسمعاني» (١/ ٤٣).

لأنه من الواضح أن نقطةً كهذه لها القدرةُ على بعث الحَيْرة في باقي الكتاب، سأتكلم فقط عن الآلهة الغيبيَّة الماورائيَّة، وأشهرُها «يهوه» إلهُ التوراة)(١٢٣).

وأيضًا فقد صدَّر كتابَه بعبارةٍ اقتبسها، يقول فيها: (ألَا يكفي النظرُ إلى روعة الحديقة وجمالها؟ لماذا يجب علينا الاعتقادُ بأن هناك جِنِّيَّاتٍ خلفَها أيضًا؟)(١٢٤)، مشيرًا بذلك إلى أن الكون مادِّيٌّ، ولا جود لشيء يقف خلفه.

وبأمثالِ هذه العبارة يُروِّج لأفكاره في كثير من كتبه ولقاءاته، مُؤكِّدًا أن الكون مادِّيٌّ فيزيائي، وأن الإنسان عبارةٌ عن تفاعلاتٍ كيميائية لا وجود للغيبيَّات فيها، فمثلًا يقول: (إن عواطف وأفكار الإنسان تظهر من خلال عمليات متشابكة شديدة التعقيد في المُخِّ، والملحدُ في هذه الحالة ... هو شخصٌ لا يؤمن بأن هناك شيئًا ما وراء العالم الطبيعي الفيزيائي، وليس هناك مِن خالقٍ مُتفكِّر ما وراء الطبيعة، يَستنصِتُ من وراء الكون، ليس هناك رُوحٌ تبقى بعد بلاء الجسد، ولا مُعجِزاتٌ؛ لكن هناك الآنَ بعضُ الظواهر الطبيعية التي لم نفهمها بعدُ، وسنتمكن في المستقبل من تقديم تفسيراتٍ لهذه الظواهر غير المفهومة بشكل كامل باستخدام القوانين الطبيعية)(١٢٥).

وقال أيضًا مُؤكِّدًا عدمَ اعترافه بالغيبيَّات: (أنا لا أهاجم نوعًا مُعيَّنًا من الآلهة، أنا أهاجم اللهَ، كلَّ الآلهة، أيَّ نوع من الآلهة، كلَّ ما هو خارقٌ وما ورائيٌّ أينَما وحيثُما وُجِدَ أو سيُوجَد)(١٢٦).

ويزعم أيضًا أن المُتديِّنين يؤمنون إيمانًا أعمى دون دليل أو برهان؛ ففي مُقابَلةٍ له سأله مديرُ الحوار: (هل الدين جيِّدٌ أم سيِّئٌ للبشرية؟ فأجاب: أعتقد أن فكرة الإيمان الأعمى، الإيمان بشيءٍ دون دليل والاختباء وراءَ حقِّ الإيمان ... يمكن أن يكون له التأثير السيِّئ)(١٢٧).

وقال في لقاء آخَرَ: (نحن نريد أن نعتقد أن هناك غاية مُسْبَقة تُحرِّك جميعَ الأشياء، حتى الجماد؛ وربما هذا هو سبب إيماننا بعالَم الأرواح)(١٢٨).

وقال في برنامج "سؤال وجواب" عندما سُئِل عن البعث بعد الموت: (الدماغ هو ما يقوم بالتفكير، والدماغ سوف يتعفن ويَتحلَّل، وهذا كلُّ ما في الأمر)(١٢٩).

---

[١٢٣] «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٢٢.

[١٢٤] المصدر السابق ص٣.

[١٢٥] المصدر السابق ص١٦.

[١٢٦] المصدر السابق ص٣٨.

[١٢٧] مناظرة بين: ديباك شوبرا، وريتشارد دوكينز (الدقيقة: ٥٩)
https://www.youtube.com/watch?v=T3XIpODjCKU

[١٢٨] أعداء المنطق: عبادة الخرافات (الدقيقة: ٣٤)
https://www.youtube.com/watch?v=h8hisCqOFr0&t=2071s

[١٢٩] هل الإيمان بالدين يجعل من العالم مكانًا أفضلَ؟ مناظرة بين: ريتشارد دوكينز،

وقد سُقْتُ هذه النُّقولاتِ عنه؛ إثباتًا لتفاصيل إنكاره للغيب، وإلَّا فإن الملحد المنكِر لوجود الخالق مُنكِرٌ -بالضرورة- للغيب، جاحدٌ به؛ فمَن لم يؤمن بوجود الله، ويعتقد أن وراء هذا الكون العظيم مُصمِّمًا بديعًا؛ فهو لا شك مُنكِرٌ للغيب.

هذا في ما يَخُصُّ الشُّبهةَ، ومُلخَّصها: تبرئةُ نفسِه من الإيمان بالغيب، والتشنيعُ على المؤمنين به، وإفرادُ كتاب كامل للحرب عليهم، ووصفهم بالإيمان الأعمى، وأن له التأثير السيِّئ على البشرية، وأن الإنسان ما هو إلَّا موادُّ كيميائية، وبموته ينتهي كلُّ شيء.

الرَّدُّ عليه:

أقول: إن الإيمان بالغيب جزءٌ من مُكوِّنات الإنسان الفِطْرية، التي لا تَطمئِنُّ النفسُ إلَّا بالإيمان والتصديق به، وإن اختلَفتْ مُسمَّياتُه. ودوكينز يناقض نفسَه حين يتبرأ من الإيمان بالغيب، وهو -في حقيقة أمره- يؤمن به، بل يؤمن بوُثُوقيَّةٍ عاليةٍ فيه، لكنه لا يُسمِّيه غيبًا، وإنما يَصِفُه بأوصافٍ مثل: (العلم سيكشف)، و(العلماء يعلمون ذلك)، ونحو ذلك.

وسأضرب عدَّةَ أمثلة على تَناقُضِه في ذلك؛ فإنَّه كثيرًا ما يُكرِّر أن الإنسان مادَّةٌ -بعيدة عن الميتافيزيقا-، وأنه نِتاجُ تَراكُمٍ تَطوُّريٍّ نشأ عبر ملايين السنين، لكنه عندما يكون الأمر مُتعلِّقًا بالعلم التجريبي الذي يبني عليه إلحادَه فإنه مُستعِدٌّ للتنازل عن ذلك، كما في قوله: (العلم يمكن أن يكون نوعًا من الشِّعر، والعلم يمكن أن يكون رُوحيًا، بل وحتى عقيدةً بالمعنى الواقعي للكلمة)(١٣٠)، فهنا نسَب للعلم أنه من الممكن أن يكون رُوحيًّا، والظاهرُ أنه يقصد بالرُّوحيِّ كما تقدم(١٣١)، أي إنَّه من الممكن أن يُقدِّم العزاءَ للإنسان؛ وبهذا فإنه يعترف أن للإنسان حاجاتٍ غيرَ مادِّيَّةٍ لا بد من إشباعها.

وفي جانب آخر يقول: (وكلما أمعنتُ التفكيرَ في الأمر؛ تَأكَّدتُ أكثرَ أن الفكرة الخاصَّة بأيِّ معجزة فوق طبيعية مُجرَّدُ هُراءٍ، وإذا ما ظهر شيءٌ ما بدا أنه غيرُ قابل للتفسير العلمي؛ تستطيع أن تستنتج بمنتهى الاطمئنان واحدًا من أمرينِ: إمَّا أنه لم يَحدُث في الواقع "المُلاحِظ أخطأ، أو كان يكذب، أو كان ضحيَّةَ خُدْعةٍ"، أو أنَّ لدينا قصورًا من نوعٍ ما في علومنا الراهنة ... وحتى نجدَ إجابةً مناسبةً لهذا الغموض، علينا أن نقولها بصراحة تامَّة: هذا شيء لم نتوصل لفهمِه حتى الآن، لكنَّنا نعمل عليه)(١٣٢).

وهذه إحالة منه إلى غيب مجهول لا يمكننا التأكُّدُ من حقيقته، وهو مُشابِهٌ للكلام الذي

وجورج بيل (الدقيقة: ٤٣)

https://www.youtube.com/watch?v=x3811zymWX4&t=2632s

(١٣٠) «العلم والحقيقة»، ريتشارد دوكينز ص٥٤.

(١٣١) (ص٦٠).

(١٣٢) «سحر الواقع»، ريتشارد دوكينز ص٢٧٢.

نقله يَتهكَّم فيه على المؤمنين قال فيه: (لماذا يُعَدُّ «الله» تفسيرًا لشيءٍ ما؟ هو ليس تفسيرًا، بل بالأحرى عجزٌ في التفسير ولا مبالاةٌ، هو عبارة عن «لا أعرف» مُتنكِّرةٍ بالرُّوحانيَّات والطقوس)(١٣٣)، وحسَبَ منطقه هذا فكلُّ دليل يُعَدُّ ساقطًا!

ولنا أن نتأمل: (لو أنَّ عالمًا ما أتى بنظرية علمية تملؤها الفجواتُ والفراغاتُ، والكثيرُ من الأجزاء الناقصة التي لا شرح لها ولا إجابة عليها، ثُمَّ أعطى ذلك العالمُ لنفسه الحقَّ في أن يُجيب على مُنتقِدِيه بعبارةِ: "أنا واثقٌ مِن أنَّ لأسئلتِكم كلِّها ردودًا منطقيَّةً تتوافق مع نظريتي، لكنِّي لا أعرفها حتى الآن"، إنْ قَبِلَ الناسُ منه هذا الرَّدَّ؛ فهل هناك سبيل أصلًا إلى إثبات خطئِه أو إسقاطِ نظريته؟ أرجو أن يكون السببُ قد وضح الآن: لماذا لا يَتغيَّر -ولن يتغير- موقفُ دوكنز خاصَّةً والملحدين عامَّةً من قضية وجودِ خالقٍ لكلِّ شيءٍ)(١٣٤).

أعود وأقول: إنَّه -عِلاوةً على إيمانه الغيبيِّ هذا بقدرات العلم، الذي يَنقُض فيه تقريراتِه السابقةَ في عدم إيمانه بالغيب- يتناقض مع نفسه مرَّةً أخرى؛ إذْ يقول في طريقة تَلَقِّي العلوم: (يحدث بالطبع أنَّا حتى في العلم قد لا نرى الأدلَّةَ بأنفسنا، ويكون علينا أن نَثِقَ بما يقوله لنا شخصٌ آخَرُ، وأنا لم أرَ بعينَيَّ نفسَيْهما الأدلَّةَ على أن الضوء ينتقل بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في كلِّ ثانيةٍ، وبدلًا من ذلك فأنا أُصدِّق الكتبَ التي تُخبِرني بسرعة الضوء، وهذا يبدو وكأنه نوعٌ من "السُّلْطة"، ولكن هذا في الواقع أفضلُ بكثير من السُّلْطة؛ لأن الأفراد الذين ألَّفوا هذه الكتبَ قد رأَوُا الأدلَّةَ، ولكلِّ فردٍ الحُرِّيَّةُ في أن يُدقِّق النظرَ في هذه الأدلة كلما أراد)(١٣٥).

وقال في لقاءٍ له مع نيل تايسون(١٣٦): (لكنَّ هذا يعني أنه ما زال هناك شيء خلفَ الأُفُق، حتى لو لم نكن نمتلك القدرةَ على رؤيته أو تَحسُّسِه بأيِّ واسطة علمية، هل هذا صحيح؟ تايسون: نعم، هذا صحيح؛ فعدمُ رؤيتك للحدود التي ينتهي عندها الأُفُقُ لا يعني أن لا شيء يَقبَع خلفَ ذاك الأُفُقِ)، ثم قال دوكينز: (في الحقيقة، لا أحمل مشكلةً مع هذا التصوُّر)(١٣٧).

هذا الكلام كلُّه في جانب، وكلامُه الصريحُ -عن إيمانه بالداروينية بدون دليلٍ- في جانبٍ آخرَ؛ فقد قال في موقع (إج) كلامًا يَحارُ الإنسانُ في تصديقه؛ لشدَّةِ تناقضِه، فعندما سُئِل: (ما الذي تؤمن بأنه حقٌّ، مع أنك عاجزٌ عن إثباته؟ فأجاب: حسنًا، جوابي حول الداروينية، الذي هو مجال اختصاصي؛ الداروينية هي تفسير الحياة على هذا الكوكب، لكنَّني أؤمن أنَّ أيَّ ذكاء، وأيَّ خالقيَّةٍ، وأيَّ تصميمٍ في أيِّ مكانٍ من الكون

---

(١٣٣) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص١٣٦.

(١٣٤) «نظرة خلفَ السِّتار»، سامي الزين ص١١٩.

(١٣٥) «العلم والحقيقة»، ريتشارد دوكينز ص٤٢٢.

(١٣٦) نيل ديغراس تايسون: عالم أمريكي، وُلِد عام ١٩٥٨م، مُختَصٌّ بالفيزياء الفلكية، يعمل حاليًّا باحثًا في قسم الفيزياء الفلكية في المُتْحَف الأمريكي للتاريخ الطبيعي.

(١٣٧) «حوارات سيدني»، ترجمة: قيس العجرش ص٩٤.

هو مُنتَجٌ مباشر أو غيرُ مباشر للانتخاب الطبيعي الدارويني، يتبع ذلك لاحقًا أن التصميم يأتي مُتأخِّرًا في الكون بعد مُدَّةٍ من التطور الدارويني، التصميمُ لا يمكن أن يتقدم على التطور، ومِن ثَمَّ لا يمكن أن يَقِفَ خلفَ وجود الكون)(١٣٨). فهذا تصريحٌ منه بإيمان عميق بالداروينية.

ولا شك أن الملحد يحتاج في إلحاده إلى قفزةٍ إيمانية شديدة ليضع رِجلَه على مِنَصَّةِ إلحاده، فهو (عاجز عن إثبات الرُّكن الركين لميتافيزيقاه المادِّيَّةِ، وهو أن الوجود مادَّةٌ؛ إذْ إنَّ الإيمان بمادِّيَّةِ كلِّ موجود "قفزة إيمانية" لا تُثبِتُها تجربةٌ، ولا يشهد لها مبدأ عقلي)(١٣٩).

و(**وفي ذلك يقول أحدُ الأذكياء في رسالةٍ لأحد التطوُّريّين:** سيِّدي، أنا مدهوش من قدرتك على الإيمان بالتطور! فهو يَتخطَّى إيماني بالخلق بكثير، إيماني يحتاج كيفيةً واحدة وهي حُبُّ الإله، أمَّا إيمانك فيتطلب ثلاثةً: أنَّ شيئًا أتى مِن لا شيءٍ "الانفجار العظيم"، وأنَّ الصخورَ تستطيع أن تُنتِج أشياءَ حيَّةً "الحياة من العناصر غير العضوية"، وأنَّ الطفراتِ الجينيَّةَ يمكن أن تُحوِّلَ دودةً شريطيَّةً إلى آينشتاين! أنت تربح، لا شك أن إيمانك يَتخطَّى إيماني بكثير)(١٤٠).

ومن الأمثلة أيضًا على الإحالات الغيبيَّة عنده: قولُه بوجود كائناتٍ فضائيَّةٍ(١٤١)، وكلامُه عن الأكوان المُتعدِّدة(١٤٢) -وهي فرضيَّةٌ لم تثبت(١٤٣)-، وكذلك بداية الكون من لا شيء(١٤٤). ولعلَّ في هذه الأمثلة إيضاحًا تامًّا للمقصود.

وسأعود إلى قولِه: (ألَا يكفي النظرُ إلى روعة الحديقة وجمالها ... إلخ)(١٤٥)، فهذه العبارة (تدعو -بكلِّ بساطةٍ- إلى الاستمتاع بظواهر العالم، دون أيِّ مُحاوَلةٍ للخوض في استكشاف أحكامه وحقائقه ...

ثانيًا: نحن نسأل ريتشارد دوكينز بوصفه باحثًا طبيعيًّا وعالمَ أحياءٍ كبيرًا: إنْ كان يؤمن بهذا الكلام الشِّعري؛ فلماذا أفنى عُمرَه هو وزملاؤه من الطبيعيّين وعلماء الأحياء في البحث والتنقيب عن أسباب الظواهر الطبيعية، والغوصِ في أعماق

---

(١٣٨) موقع (إج) www.edge.org/edgenews/question/2005 بواسطة كتاب: «ميليشيا الإلحاد»، عبد الله العجيري ص٩١.

(١٣٩) «براهين وجود الله»، د. سامي عامري ص٩٩.

(١٤٠) stephen bram. letter to the economist، January 2006 بواسطة كتاب: «الإلحاد وُثُوقيَّة التَّوهُّم وخَواء العدم»، د. حسام الدين حامد ص١٦٨.

(١٤١) «الجينة الأنانيَّة»، ريتشارد دوكينز ص٩.

(١٤٢) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص١٤٧.

(١٤٣) «الصُّنع المُتْقَن»، مصطفى قديح ص٢٠١.

(١٤٤) «كَوْنٌ مِن لا شيء مع تعليق ريتشارد دوكينز»، لورانس كراوس ص٢٣٦.

(١٤٥) سبق (ص٧٢).

الطبيعة إلى عالم الذَّرَّة وما وراء الذَّرَّة، ولم يكتفوا بالجلوس والاستمتاع بهذه الظواهر الطبيعية الخلَّابة ...

ثالثًا: مِن حقِّنا أن نسأل السَّيِّدَ دوكينز مرَّةً أخرى: لماذا لم يَكْتَفِ هو بمشاهدة هذا العالمِ الجميل، والاستمتاعِ بهذا النظام البديع، وهو مرتاحُ البال؟ بل نجده قد سعى سعيًا حثيثًا في البحث والتَّفلسُفِ عن حقيقة الكون ونشأته ... ثم تَكلَّف بعدها لإيجاد رؤية فلسفية مادِّيَّة بديلة عن الرؤية الفلسفية الدينية)(١٤٦).

المبحث الثالث: شبهة الجَبْر في القَدَر:

المذهب الجَبْري ليس مذهبًا جديدًا أوجده الملاحدةُ في هذا العصر، بل هو موجود منذ عهد اليونانيِّين(١٤٧)، كما ابتُدِعَ في أوائل قرون الإسلام من قِبَل بعض الأفراد. لكنَّني في هذا المبحث لن أتطرَّق لما سبق طرحُه من قبلُ، وتَمَّ الرَّدُّ عليه من أَجِلَّاءِ علمائِنا؛ فقد رَدُّوا على شُبَهِ الجَبْريَّة وفنَّدوا حُجَجَهم وأضعفوا مذهبَهم، فجزاهم الله عنَّا خير الجزاء.

ومع تعاقب الأزمان تطوَّرت الشبهةُ، وأخذت شكلًا جديدًا يعتمد على الكشوفات العلمية الحديثة؛ ولذا سيكون الكلام عن الجَبْر في هذا الجانب، فالمذهب الجبري جزء من المنظومة الإلحادية، ولا يمكن أن يقوم الإلحاد إلَّا به؛ فإن العالَم عند الملحد عبارةٌ عن ذرَّاتٍ تتكوَّن نتيجةَ الصُّدَف، والإنسانُ يسير وَفْقَها وبناءً على تَوجُّهِها اللاواعي؛ إذْ نحن سائرون فقط لهدف البقاء، ونتطور لتحقيقه. هذا هو مفهوم الملحد عن الإنسان(١٤٨).

ودوكينز ليس استثناءً من هؤلاء الملاحدة، بل هو واحد من أفرادهم، وامتدادٌ لمعتقَدهم، وقائلٌ بقولهم ومذهبهم؛ لذا نجده في كثير من لقاءاته وكتبه يذكر أنَّ الإنسان لا يملك اختيارًا في تصرُّفاتِه، أو إرادةً حُرَّةً في قراراته، وإنْ كان في الواقع يَتوهَّم أنه حُرٌّ في ذلك، واعٍ به، كما يقول: (أشعر كما لو أنَّ لديَّ إرادةً حُرَّةً، حتى لو لم يكنْ)(١٤٩).

وفي مناظرته مع ديباك شوبرا(١٥٠) عندما سأله: (هل تؤمن بحُرِّيَّة الإرادة؟

---

(١٤٦) «نهاية حلم "وهم الإله"»، أ. د. أيمن المصري ص٩٥.

(١٤٧) «تاريخ الفلسفة الغربية»، برتراند راسل (٢٩٢/١).

(١٤٨) للاستزادة انظر مقالًا على الشبكة بعنوان: "الإلحاد يُسمِّم القيمة"، د. هيثم طلعت.

(١٤٩) لقاء مع ريكي جيرفيس (الدقيقة: ٥)، بعنوان: " Richard Dawkins & Ricky Gervais on Religion" على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=nfIBEJYZG7o&t=321s

(١٥٠) ديباك شوبرا: وُلِد عام ١٩٤٦م، طبيب، كاتب أمريكي، هندي الأصل والمولد، ألَّف عدَّةَ كتبٍ، مُؤسِّسُ مركزِ شوبرا للصحة في كاليفورنيا.

فقال: أعتقد أن حُرِّيَّة الإرادة هو وَهْمٌ مُقنَّعٌ؛ فنحن نتصرف كأنه لدينا حُرِّيَّةُ إرادةٍ)(١٥١).

وفي لقائه مع لورانس كراوس(١٥٢) سُئِل هذا السؤالَ: (هل هناك أساس علمي لمفهوم الإرادة الحُرَّة؟ وإنْ كان الجوابُ: لا؛ فهل هناك سببٌ حيويٌّ تَطوُّريٌّ لكونِنا جميعًا نظن أنَّ لدينا إرادةً حُرَّةً؟)، فأجاب بما نَصُّه: (عندما سُئِل الراحلُ كريستوفر هيتشنز(١٥٣) عمَّا إذا كان يؤمن بالإرادة الحُرَّة؛ أجاب: "ليس لديَّ خِيارٌ في هذا"، هذا السؤال يُفْزِعني؛ لأنِّي لا أملك فكرةً عن هذا الموضوع، أعتقد أنَّ لي نظرةً مادِّيَّةً للعالم، أعتقد أن الأشياء تتقرَّر بطريقة عقلانية عبر الأحداث السالفة لها، وهذا يُلْزِمني بفكرةِ أنِّي عندما أظن أن لي إرادةً حُرَّةً؛ فهذا يعني أنِّي أُضلِّل نفسي، عقلي يقول بأنَّ هذه الحالاتِ تُقرِّرها أحداثٌ فيزيائية، ومع ذلك هذا يُناقِض انطباعًا شخصيًّا قويًّا بأنَّنا جميعًا نملك إرادةً حُرَّةً)(١٥٤).

وقال أيضًا: (الشِّيفرة الوراثية لا تكترث ولا تدري، إنها كذلك فقطْ، ونحن نرقص وَفْقَ أنغامها)(١٥٥).

وفي بداية الفصل الثالث من كتابه «الجينة الأنانيَّة» يقول دوكينز بدون مُقدِّمات: (نحن آلاتُ بقاءٍ)(١٥٦)، مُشيرًا بذلك إلى النظرة المادِّيَّة الميكانيكيَّة للإنسان، ومُجرِّدًا منه تَميُّزَه عن جميع الموجودات في هذا الكون.

بل إنه صرَّح بمُساواة الإنسان بالرجل الآلي في حُرِّيَّة الإرادة، فقال: (والرُّوبوت لم يَعُدْ مُجرَّدَ جهازٍ غبيٍّ وغيرِ مَرِنٍ، بل أصبح قادرًا على التعلُّم والتفكير والإبداع ... كان الرُّوبوت رجلًا آليًّا انتهى به الأمرُ إلى امتلاك مشاعر إنسانية؛ كالحُبِّ مثلًا، ويختلط الأمرُ على أولئك الذين يعتقدون أنَّ الرُّوبوت من حيث المبدأُ «جَبْريٌّ» أكثرَ من الإنسان؛ إلَّا إنْ كانوا مُتديِّنين، وهم في هذه الحالة سيؤكِّدون دائمًا أنَّ اللهَ أنعم على البشر بحُرِّيَّة الإرادة التي

---

(١٥١) مناظرة بين: ديباك شوبرا، وريتشارد دوكينز (الدقيقة: ٤٠)
https://www.youtube.com/watch?v=T3XIpODjCKU

(١٥٢) لورانس ماكسويل كراوس: وُلِد عام ١٩٥٤م، فيزيائي نظري، عالمُ فلكٍ أمريكي كندي، يعمل أستاذًا جامعيًّا في كلية استكشاف الأرض والفضاء، في ولاية أريزونا الأمريكية، له كتاب: «كَوْنٌ مِن لا شيء».

(١٥٣) كريستوفر إيريك هيتشنز (١٩٤٩-٢٠١١م): أحدُ أشهر رموز الإلحاد المعاصر، صاحب كتاب «الإله ليس عظيمًا».

(١٥٤) ٠٢/٠٢ شيء من لا شيء: محادثة بين لورانس كراوس وريتشارد دوكنز (الدقيقة: ٥٧)
https://www.youtube.com/watch?v=1aTGYx7BAj8

(١٥٥) «نهر خارج من عدن»، ريتشارد دوكينز ص١٣٣ (باللغة الإنجليزية)، بواسطة كتاب: «ميليشيا الإلحاد»، عبد الله العجيري ص١٥٩.

(١٥٦) ص٣٧.

حُرِمتْ منها الآلاتُ)(١٥٧).

أعتقد أنه لا أوضحَ من هذا الكلام في نزعِ حُرِّيَّة الاختيار من الإنسان، وإلباسِه لباسَ الجَبْر والحَتْميَّة، وأظن أنَّ في هذه المقولة وما قبلها البيانَ الشافيَ لرأيه حول الموضوع.

بَقِيَتْ نقطةٌ قد تُشْكِل؛ هي أنَّ له كلامًا يحاول أن يتبرأ فيه من الحتميَّة، يقول فيه: (في ١٩٧٨، دعاني مُحرِّرُ مقالاتِ العُرُوض في مجلة علمية مشهورة ... إلى أن أَعرِضَ كتابَ "ستيفن جاي جولد": «منذ زمنِ داروين»، مُعلِّقًا بأني أستطيع هكذا أن أنال ثأري من مُعارِضِي الحتميَّة الوراثية، ولم أَدْرِ أيُّ الأمرينِ أزعَجَنى أكثرَ: طرحُه أني أُناصِرُ الحتميَّةَ الوراثية، أو طرحُه أني ربما أَعرِضُ أحدَ الكتب بدوافع انتقامية)(١٥٨).

لكنَّه لن يَجِدَ بُدًّا من القول بها، وإلَّا لَناقَض نفسَه أكثرَ من ذلك. أقول: (أكثرَ من ذلك)؛ أعني: أنه عندما يُقِرُّ في كثيرٍ من كتبه ولقاءاته بالحتميَّة، ثم ينفيها بصراحةٍ في قوله هذا؛ فهو يتناقض، لكنَّه لو كان صادقًا في نفيِه للحتميَّة؛ فإنه يتناقض بشكل أكبرَ مع منظومة الإلحاد كاملةً؛ إذْ لا إلحادَ دون حتميَّةٍ.

وبعد هذا نستنتج أنَّ مُلخَّصَ شبهتِه هو: أن الإنسان عبارةٌ عن مادَّةٍ وآلةِ بقاءٍ، سائرٌ حيث تُوجِّهُه مادَّتُه، ولا يملك أيَّ إرادة أو اختيار.

الرَّدُّ عليه:

في البداية لا بدَّ من الإشارة والتأكيد على أنَّ هذه القضيَّةَ أَلْصَقُ بالمذهب الفلسفي والديني(١٥٩) منها بالجانب العلمي -إذا لم تكنْ أصلًا خارجةً عنه-؛ ولذا فإنَّ الاتِّفاقَ على المبادئ العقلية الضرورية يُشكِّل القاعدةَ التي نستطيع أن نَتَّكِئَ عليها ونتحاور منها، وإنَّ تَنكُّرَها يعني سقوطَ منظومة الحوار العلمي، والدخولَ في بوَّابة السفسطة والاضطراب.

وإذا تَقرَّر هذا؛ فإنَّني آمُلُ أن لا يَتنكَّر دوكينز للمبادئ العقلية؛ لأنَّني أفهم من لقائه مع لورانس كراوس عندما قال: (هذا يُناقِض انطباعًا شخصيًّا قويًّا بأنَّنا نملك إرادةً حُرَّةً)(١٦٠) أنَّ لديه شعورًا ما يدفعه إلى الاعتقاد بأنَّ لديه حُرِّيَّةَ الاختيار، هذا هو ما أعنيه بالمبادئ الضرورية، فإنَّ (تَحقُّقَ حُرِّيَّة الإرادة والاختيار في الإنسان في تحديد أفعاله أمرٌ فطريٌّ ضروريٌّ، يَجِدُه كلُّ إنسان في داخل نفسه؛ فالأَسْوِياءُ من العقلاء يُفرِّقون بين الأفعال التي يفعلها المرءُ بإرادته واختياره؛ كالأكل والشُّرب والبيع والشراء والنكاح وغيرها، وبين الأفعال التي تقع منه من غيرِ اختيارٍ ولا

---

(١٥٧) المصدر السابق ص٣٦.

(١٥٨) «العلم والحقيقة»، ريتشارد دوكينز ص٣٤٣.

(١٥٩) دورة: "النزعة العلموية"، عبد الله العجيري (الدقيقة: ٣٦)
https://www.youtube.com/watch?v=EyuzUYlW_3U&t=2367s

(١٦٠) «شيء من لا شيء»، وقد سبق (ص٨٢).

إرادة؛ كالسقوط من السطح، والارتعاشِ من البرد والحُمَّى، فيمدحونه ويَذُمُّونه على النوع الأول، ويُرتِّبون عليه جميعَ الآثار القانونية ولا يفعلون ذلك في النوع الثاني. ولو كان العقلاءُ يُساوُون بين النوعينِ؛ لَبطَلَتْ جميعُ الأحكام القانونية، وفسَدتْ جميعُ التعاملات الإنسانية)(١٦١).

ولذا فإنَّ (آثارَ وتداعياتِ مِثْلِ هذا التصوُّر الجَبْري للإرادة الإنسانية كثيرةٌ وخطيرة؛ لِما ترفعه من إشكالاتٍ أخلاقية، وأسئلةٍ حول المسؤولية الفردية، فإذا كان المُجْرِمُ مُجْبَرًا على ما فعل؛ فما المُسوِّغُ الأخلاقي لمعاقبته؟ وإذا كان المحسنُ مُجْبَرًا على إحسانه؛ فما المُسوِّغُ لمكافأته وشكره والثناءِ عليه؟ وما المُسوِّغُ للامتعاض من وجود الشُّرور البشرية، والكُلُّ عبارةٌ عن روبوتات مُبَرمَجةٍ لتؤدي أعمالًا مُحدَّدة، لا تستطيع الانفكاكَ عنها؟

بل ما مُسوِّغُ الملحد -في ضوء هذا التصور الجبري- للدعوة والتبشير بإلحاده؟ فالمؤمن مُجْبَرٌ على إيمانه، والملحد مُجْبَرٌ على إلحاده؛ فلِمَ هذه الحماسةُ في الدعوة إلى الإلحاد، وليس ثمَّةَ إرادةٌ حقيقية يستطيع الإنسان أن يختار من خلالها؟

وما المُسوِّغُ للاشتغال بتحصيل المعرفة والعلوم أصلًا؛ إذْ لم يكن للإنسان قدرةٌ على فرزِ المعارف الصحيحة من الباطلة في ظِلِّ غَيْبةِ إرادته الحُرَّة، فهو لا يعدو أن يكون مُحرَّكًا مدفوعًا إلى نتائج مُحدَّدة، بغَضِّ النظر عن طبيعة تلك النتائج في حدِّ ذاتها، وهل هي مُنتمِيةٌ لفضاء الصحة أو البطلان؟)(١٦٢).

وهذه الآثار تُشكِّل مُعضِلةً حقيقية أمام دوكينز وغيره من الملحدين، وهو مُدرِكٌ لِمثل هذه النظرة الداروينية للإنسان، وأنَّ من المستحيل إقامةَ سقفٍ يعيش تحته الناسُ بسلام واطمئنان، فهو عند التنظير يتبنى شيئًا وعند التطبيق يتبنى شيئًا آخرَ، ويقول هذا بكلِّ وضوح وصراحة: (أنا دارويني بشغفٍ عندما يتعلق الأمرُ بتفسير كيفية الحياة، وأنا ضِدُّ الداروينية بشغفٍ عندما يتعلق الأمرُ بترتيب حياتنا)(١٦٣)، وقد صدق في هذا.

وأيضًا فإنه يَنقُض أقوالَه بنفسه؛ إذْ إنه عندما تكون حُرِّيَّةُ الإرادة تخدم مشروعَه؛ يُقِرُّ بها ويُوظِّفها لصالحه، كما في شعاراته العاطفية يتبنَّى ترويجَها، وقد سبق الحديثُ عنها(١٦٤)، فإنه قال في إعلان الطفلينِ: (مِن فضلِكما، لا تُصنِّفوني

---

(١٦١) «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث»، د. سلطان العميري (٨٣/٢).

(١٦٢) «شموع النهار»، عبد الله العجيري ص٨٢، و«ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث»، د. سلطان العميري (٨٣/٢) كلام قريب من هذا.

(١٦٣) مقابلة ريتشارد دوكنز على قناة الجزيرة الإنكليزية (الدقيقة: ٤٢)
https://www.youtube.com/watch?v=tjQD1GvSL1k&t=479s

(١٦٤) سبق (ص٢٦).

كمُتديِّن، دعوني أَكبَر لأختار لنفسي بإرادة حُرَّة)(١٦٥)، فظهرت الإرادة الحُرَّة هنا عندما أصبح الأمرُ لصالحه!

ثُمَّ إنَّ القولَ بأنَّ الإنسانَ مُجْبَرٌ (دعوى خبرية مُندرِجة ضمنَ القضايا الكلية الموجبة، وهذه القضية لا تخلو إمَّا أن تكون من قضايا الضرورات العقلية التي لا تحتاج في إثباتِ صدقِها إلى دليلٍ، وإمَّا أن تكون من القضايا النظرية التي يتطلب إثباتُ صحتها إلى إقامة الدليل، ويستحيل أن تكون الحتميَّةُ من قَبِيل قضايا الضرورات العقلية؛ لأنَّ الضروراتِ العقليةَ يستحيل تَصوُّرُ نقضِها، بينما الحتميَّة المُطلَقة يمكن تَصوُّرُ نقضِها؛ إذْ يمكن للعقل أن يتصور تَخلُّفَ بعض الحوادث عن مسارها، والقضية الضرورية العقلية مُتَّصِفةٌ بالصدق المطلَق في كل زمان، فمبدأ عدم التناقض مثلًا صادقٌ صدقًا مُطلَقًا لا يتخلف في أيِّ زمان ومكان، بينما الحتميَّة ليست كذلك)(١٦٦).

وإنما في الواقع فالعكسُ هو الصحيح؛ إذْ هناك (شعور اضطراري لدى الإنسان بحُرِّيَّة الإرادة، وعدمِ استسلامه للجبرية. فإنْ قيل: هذا لا يكفي، قد يكون وهمًا؛ بمعنى أنه قد يُوضَع احتمالٌ عقلي يُخالِف هذا الشعورَ الاضطراريَّ. فهنا أُقرِّر قاعدةً مهمة؛ جوابًا على هذا الإيراد، تقول: الضروراتُ النفسية أقوى وأضمنُ من الاحتمالات العقلية، فتُقدَّم عليها. وأزعم أن اعتقاد هذه القاعدة كفيلٌ -إن شاء الله- بإبطالِ كثيرٍ من الشبهات، فالاحتمالُ العقلي لم يَثبُت، فيبقى مُجرَّدَ احتمال، أمَّا الشعورُ الاضطراريُّ فثابتٌ، فلا يُنسَخ الثابتُ بالمُحتمَل، وهذا ما تقتضيه الحكمةُ)(١٦٧).

ويشهد لهذا الكلام ما قاله الفيلسوفُ الفرنسي أميل بوترو: إنَّه (لا ينبغي أن ننسى أن التجربة ذاتَها هي التي أَوْحَتْ إلى الذِّهن البشري بفكرة السبب الطبيعي، وليست هذه الفكرةُ مبدأً أَوَّليًّا تخضع له أحوالُ الموجود، بل هي الصورة المُجرَّدة للعَلاقة بين هذه الأحوال)(١٦٨).

ومن الممكن الاستئناسُ بكلام العلم التجريبي -وإنْ كان من الصعب التعويلُ عليه؛ فهو قابلٌ للتغيُّر-، فإنَّ نظرية الفيزياء الكَمِّيَّة قد أحدثت تَغيُّرًا في مفاهيم الحُرِّيَّة والحتميَّة، ففي (فيزياء نيوتن، أو الفيزياء الكلاسيكية، الأمورُ تُحدَّد بدقَّةٍ، ولا توجد احتماليَّةٌ أو رِيبةٌ أو لا

---

(١٦٥) «خرافة الإلحاد»، د. عمرو شريف ص٣٤.

(١٦٦) «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث»، د. سلطان العميري (٦١٣/١)، و«المعرفة في الإسلام»، د. عبد الله القرني ص٣٠٥.

(١٦٧) مقطع بعنوان: "حول حرية الإرادة ونفي الوهم عن شعورنا بأصالتها"، د. عبد الله الشهري"https://www.youtube.com/watch?v=MHjGIb7SeNI بتَصرُّفٍ.

(١٦٨) مجلة (تراث الإنسانية)، العدد (٧)، المجلد الثاني ص٧٠٢.

يقين؛ ولذا يُمكِنُنا أن نُحدِّد بدقَّةٍ سرعةَ ومواضعَ الأجسام، وهذا جعل لابلاس[١٦٩] يذهب بميكانيك نيوتن إلى أبعدِ حدٍّ ممكن ...

أمَّا في ميكانيك الكم الذي يهيمن اليومَ على الفيزياء؛ فنحن لا نستطيع معرفةَ سرعةِ وموضعِ جُسَيمٍ واحدٍ بدقَّةٍ، فضلًا عن كلِّ الجُسَيمات، فالأمورُ أصبحت مُختلِفةً تمامًا، والجُسَيمُ يمكن أن يكون في أيِّ موضعٍ مُحتمَلٍ أن يكون فيه، وسرعتُه يمكن أن تكون أيَّ سرعةٍ مُحتمَلةٍ له، فلم تَعُدْ هناك حَتميَّة كاملة في ميكانيكا الكم؛ أيْ لم تَعُدْ هناك أيَّةُ إمكانيَّةٍ في معرفة المستقبل بدقَّةٍ؛ لأنَّ هناك أكثر من احتمال ...

وهكذا يمكن أن نقول: إن ميكانيك الكم ... أصبح أيضًا بابًا لإثبات الإرادة الحُرَّة للإنسان، وإن الإنسان يمكن أن تكون له مدخليَّةٌ في صُنعِ مستقبله، فالإنسان ليس مُجْبَرًا ولا مقهورًا على أن يسلك طريقًا ترسمه له حتميَّةٌ كونيَّةٌ لا مفرَّ منها)[١٧٠].

أيضًا يقول لويس دي برولیه: (لقد كانت حتميَّةُ العلم الكلاسيكي تُسلِّم بتَصوُّرٍ صارم لا مَحِيصَ عنه للكون الفيزيائي، في إطار الزمن - مكان، ثم أَدخلَتْ فيزياءُ النِّسبيَّة تحسينًا على هذا التصور، فرصَدتْ كلَّ حوادث الكون الفيزيائي في أماكنها التي احتوتها بهذا الشكل كلَّ الماضي والحاضر والمستقبل، ولم تستطع فيزياءُ الكم الاحتفاظَ بهذه التأكيدات التي لا شك في جرأتها ...

إذْ كيف نستطيع في الواقع أن نُعطِيَ مجرًى تامَّ التحديد زمانًا ومكانًا لتطورات ديناميكية لا تَتَّفِق معًا أبدًا بصورة حاسمة؟! كيف تستطيع فيزياءُ لم تَعُدْ تعرف حقيقةً موضوعيَّةً بحتةً، ولم تَعُدْ تعرف كيف تَعِي شيئًا على الإطلاق سوى العَلاقات بين الراصد وما يرصده أن تَصِلَ إلى صورةٍ موضوعيَّةٍ تمامًا، كما يتطلبه الوصفُ الحتميُّ التَّامُّ للظواهر؟! ...

وبالاختصار تجد أنَّ فيزياءَ الكم في مجالها الذي يتمشى مع الظواهر ذاتِ القياس الصغير جدًّا، عاجزةٌ عن الوصول إلى الحتميَّة؛ أي: التَّنبُّؤ الكامل بالظواهر المُمكِن مشاهدتُها)[١٧١].

ومن ناحية التجارب العلمية، فإن هناك تجربة قام بها ("بنجامن لبت" المُختَصُّ في علم وظائف الأعضاء، طلب فيها من المشاركين مراقبةَ ساعةٍ يأخذ فيها العقربُ دورةً كاملةً في ٤٣ جزءًا من الثانية، وأن يقوموا على نحوٍ عشوائيٍّ بثَنْيِ أَكُفِّهم من الرُّسْغ، ثم يقوموا من خلال الساعة بتحديد اللحظة التي صاروا واعينَ فيها باتِّخاذِ قرارِ ثَنْيِ الكَفِّ، وقام بوضع أجهزةِ تخطيطِ النشاط الدماغي والعضلي على

---

[١٦٩] بيير سيمون دي لابلاس (١٧٤٩-١٨٢٧م): فيلسوف، رياضي، فيزيائي فرنسي، يُصنَّف كأحد أعظم علماء عصره.

[١٧٠] «وهم الإلحاد»، أحمد الحسن ص٤٦٠.

[١٧١] «الفيزياء والميكروفيزياء»، لويس دي برولیه ص١٤٧، بواسطة كتاب: «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث»، د. سلطان العميري (٦١٥/١).

المشارِكينَ، وتوصَّل إلى نتيجةٍ مَفادُها: أنَّ ثمَّةَ نشاطًا دماغيًّا يتعلق باتِّخاذِ قرارِ ثَنْيِ الكَفِّ يسبق وعيَ مُتَّخِذِ القرار باتِّخاذ هذا القرار وذلك بزمن يسير جدًّا، بما يُوحِي بأن قرار ثَنْيِ الكَفِّ قد تم اتخاذُه في الدماغ قبل أن يكون صاحبُه واعيًا بأن القرار قد اتُّخِذَ.

ومن الواضح ما لهذه النتيجة من تداعياتٍ خطيرة فيما يتعلق بحُرِّيَّة الإرادة الإنسانية، التي يبدو فيها الإنسانُ مُجْبَرًا في صورة المُختار، وبطبيعة الحال فقد تفجَّر جدلٌ واسعٌ جدًّا فيما يتعلق بالتجربة ذاتها، والنتائج المستخلَصة منها ...

وممَّن قدَّم نقدًا لها: "دانيل دينيت"، أحدُ رموز الإلحاد الجديد ... بل إنَّ "لبت" نفسَه صاحبَ التجربة حاوَل أن يُقدِّم تفسيرًا للتجربة يسعى من خلاله إلى المحافظة على مفهوم الإرادة الحُرَّة، وكذا فعل غيرُه)(١٧٢).

ثُمَّ إنَّ قولَ دوكينز بالجَبْريَّة والحتميَّة يُناقِض كلامَه السابقَ عن الصدفة(١٧٣)؛ فها هو العالم الفرنسي "دي لابلاس" الذي قال أوَّلَ مرَّةٍ بفكرة الحتميَّة(١٧٤)، يقول بعدمِ وجودِ أيِّ أثرٍ للصدفة، وذكر(١٧٥) (أن الصدفة ليست إلَّا مظهرًا فحَسْبُ، فهي جهلٌ بعددِ وأهميةِ العِلَل المركَّبة التي يصعب قياسها لبعض الحوادث، فالقوانين التي تخضع لها الحوادثُ التي تبدو متروكةً للمصادفة، قوانينُ يمكن التحقُّقُ منها تَحقُّقًا تجريبيًّا بنسبة مُعيَّنة)(١٧٦). فصاحبُ فكرة الحتميَّة يرفض فكرةَ الصدفة، ويقول بعدم اجتماعهما معًا.

ومن جانب آخر، لو نظرنا إلى القول بالجبر ونفي حُرِّيَّة الاختيار؛ لَوجَدْنا أنه قولٌ لا معنى له، ولا فائدة في معرفته في ظِلِّ النظرة الداروينة للإنسان، بل إنَّه لا يمكن التوصُّلُ إلى إثبات أنَّنا أحرارٌ أو مُجْبَرون أو أيُّهما أفضلُ أو أيِّ حقيقةٍ في الوجود، بل لا يمكن الوثوقُ بها؛ لأن الإنسان -بحَسَبِ الداروينية- عقلُه مُجهَّزٌ بأدواتٍ تدفعه للبقاء والحفاظ على النوع، وليس مُجهَّزًا لاكتشاف الحقائق والتأكُّدِ منها(١٧٧).

وفي رسالة داروين لصديقه "وليام جراهام"، يقول: (ينتابني دائمًا شكٌّ فظيعٌ حول ما إذا كانت قناعاتُ عقلِ الإنسان، الذي -بدَوْرِه- تَطوَّر من عقولِ كائناتٍ أدنى، تتمتع بأيِّ قيمة أو تَستحِقُّ أيَّ ثقةٍ)(١٧٨).

---

(١٧٢) «ميليشيا الإلحاد»، عبد الله العجيري ص٩٦.

(١٧٣) كما تقدم في (ص٣٣).

(١٧٤) «الكون في قشرة جوز»، ستيفن هوكينج ص٩٨.

(١٧٥) «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث»، د. سلطان العميري (٦١٠/١).

(١٧٦) «فلسفة المصادفة»، محمود أمين العالم ص١٠٦.

(١٧٧) «براهين النبوة»، د. سامي عامري ص٣٥.

(١٧٨) The Life and Letters of Charles Darwin، VOl. 1، London، p. 285.بواسطة كتاب: «ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان»، د. عبد الله الشهري ص١٨٢.

بل إنَّ دوكينز نفسَه يُصرِّح ويقول: (وقد يظن القارئُ أنَّ أعضاءَنا الحِسِّيَّةَ قد شُكِّلتْ لتُعطِيَنا صورةً حقيقيَّةً للعالم كما هو واقعيًّا، ومن الأسلم لنا أن نفترض أن هذه الأعضاء قد شُكِّلتْ لتُعطِيَنا صورةً مفيدةً عن العالم، تساعدنا على البقاء أحياءً، فنحن قِرَدةٌ عُلْيا قد زادت رُقِيًّا، وعقولُنا كانت مُصمَّمةً لتفهمَ فحَسْبُ التفاصيلَ الواقعية لطريقة بقائنا أحياءً)(١٧٩).

ولا أوضحَ من هذا الكلام في طرح الثِّقة في العقل، والاعتمادِ عليه في التوصُّل للحقيقة.

وبما أنه أورد القِرَدةَ في كلامه، فسأذكر مثالًا غريبًا عند الحيوانات؛ التي لا بدَّ أن تكون مُجْبَرةً على أفعالها أضعافَ ما لدى الإنسان من جَبْرٍ؛ إذْ إنها لا تملك عقولًا تُفكِّر بها وتُحلِّل بها، وإنما هدفُها المحافظة على البقاء وَفْقَ دوافع الجِين الأنانيِّ فقطْ؛ إذْ هناك ما يُسمَّى غزلانَ طومسون؛ التي تُبدِي سلوكًا غريبًا عند المُفترِس: بإظهارِها لنفسها، وقفزِها أمامه. وهذا يُخالِف ما جُبِلتْ عليه.

قال دوكينز عنها: (الواقع أن هذا القفزَ الحيويَّ والجَلِيَّ أمام أيِّ حيوان مُفترِس، يُشْبِهُ نداءَ الإنذار الذي تُطلِقه الطيورُ من حيث إنه يُنبِّه -على ما يبدو- الرِّفاقَ إلى الخطر فيما يجذب انتباهَ الحيوان المفترِس إلى الظَّبْيِ الواثبِ، وإذْ تقع على عاتقنا مسؤوليةُ تفسير سلوك الظِّباء الواثبة وغيرِها من الظواهر المشابِهة؛ فسأفعل في الفصول اللاحقة)(١٨٠).

ثُمَّ فسَّرها بزعمه في الفصل العاشر، فقال: (وهنا تُواجِهُ نظريةُ الجِينة الأنانيَّة تَحدِّيًا مُضنِيًا ... يتمثل الجزءُ الحيويُّ في التفكير غير التقليدي بفكرةٍ مَفادُها: أنَّ الوثبَ -بعيدًا من أن يُشكِّل إنذارًا مُوجَّهًا إلى الغزلان الأخرى- يستهدف تحديدًا الحيواناتِ المفترِسةَ، صحيحٌ أن الغزلان الأخرى تلاحظ هذا التصرُّفَ فيُؤثِّر في سلوكها، إلَّا أنَّ هذا التأثيرَ عَرَضيٌّ؛ لأن الدافع الأساسي للوثب هو لفتُ انتباه الحيوان المفترِس، وقد تعني الترجمةُ الحرفيَّةُ لهذا السلوك: انظُرْ كيف أَثِبُ عاليًا، مِنَ الجَلِيِّ أنني غزالٌ موفورُ الصِّحَّة والنشاط، ولا يمكنك مُهاجَمتِي، مِن الحكمة إذَنْ أن تحاول مُهاجَمةَ جاري الذي لا يَثِبُ عاليًا مِثْلي ...

وبحسَبِ هذه النظرية، فإن السلوك المعتمد أبعدُ ما يكون عن الإيثار، وإنْ كان لا بد من توصيفه؛ فهو سلوكٌ أنانيٌّ؛ إذْ إن الغاية منه إقناعُ الحيوان المفترِس بمُطارَدةِ فردٍ آخرَ)(١٨١).

وأقول: كيف تكون الجيناتُ أنانيَّةً مُبرمَجةً لهدف محدَّد -هو البقاء-، ثم يفعل الغزالُ ما يفعل؟ أليس هذا مُخالِفًا لِما بُرمِجتْ عليه الجِيناتُ؟ أليس هو القائلَ: (الشِّيفرة الوراثيَّة لا تكترث

---

(١٧٩) «العلم والحقيقة»، ريتشارد دوكينز ص٨٨.

(١٨٠) «الجينة الأنانيَّة»، ريتشارد دوكينز ص٢١.

(١٨١) المصدر السابق ص ٢٧٤.

ولا تدري، إنَّها كذلك فقط، ونحن نرقص وَفْقَ أنغامها)(١٨٢)؟

فتفسيرُ دوكينز لسلوك الغزال غيرُ واقعيٍّ، ويُخالِف المُشاهَدَ في عالم الحيوان، ولو تأمَّل كلامَه قبل أن يكتبه؛ لوجد أن سؤالًا (حقيقًا بالطرح هنا؛ هو: لماذا في كلِّ مرَّةٍ يهجم الحيوانُ المفترِس على الغزال الذي يقفز ويترك الآخَرين؟! أليس تغييرُ دَفَّةِ الكلام هنا غِشًّا علنيًّا من دوكينز لقُرَّائه؟!! أم أن الغزلان بهذا الغباء الشديد الذي ترى به عشراتِ أو مئاتِ المرَّات هذا السلوكَ [أيْ: غزال يقفز لكي يقول للمفترِس: أنا الأسرعُ، ولا تَقترِبْ مني]، فيأكله المفترِسُ، أو يترك الكلَّ ويجري وراءَه.

ولكن كل الغزلان تُصِرُّ على تَكرار الفعلِ الغبيِّ نفسِه مرَّةً من بعد مرَّة!)(١٨٣).

وهذا (التحليل الذي يَتبَّناه في تفسير ذلك السلوك، هو ما ينضح باليأس والتشدُّد والتنطُّع والاستماتة في تحليل كلِّ شيء بما يتناسب مع الرُّؤى التي يضعها سلفًا، ولو كانت عوراءَ، أو حتى عمياءَ)(١٨٤)؛ فإنَّ هذا (مثالٌ صارخٌ على أن قلبَ الحقائقِ وتحويرَ المعاني أصبح عند البعض مهنةً تُمتهَنُ، وحِرْفةً تُتَّخَذ دون أن تتطلب موهبةً ولا حتى جهدًا)(١٨٥).

ولعلَّ في ما أورَدْناه توضيحًا للفكرة، وردًّا على شُبُهِها.

وقبل الختام أَوَدُّ الإشارةَ إلى أنَّ تَبِعاتِ إنكار وجود الله ثقيلةٌ جدًّا، وتتطلب تَعسُّفًا شديدًا في تفسير بَدَهيَّات الحياة، والوصول إلى معناها وغايتها.

ومِن بابِ قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦] أقول: هذا هو الملحدُ "ويل بروفاين" بروفيسور تاريخ علم الأحياء في جامعة كورنيل، يقول: (يبدأ الأمرُ بالتَّخلِّي عن الإيمان بالإله، ثم التخلِّي عن الأمل بحياةٍ بعد الموت، وعندما تتخلى عن هاتينِ الفكرتينِ فإنَّ بقيَّةَ الأمور تأتي بسهولةٍ؛ حيث تفقد الأملَ بأن هناك مبادئ أخلاقية سامية، وأخيرًا لا وجودَ لأيِّ إرادةٍ إنسانية حُرَّة، إذا آمنتَ بالتطور فلا يمكنك أن تأمل في وجودِ أيِّ إرادة حُرَّة، ليس هناك أيُّ أملٍ في وجودِ أيِّ معنًى عميق في الحياة الإنسانية، نعيش ونموت ونفنى، نحن نفنى بالتأكيد حين نموت)(١٨٦).

وفي النهاية، فإنَّ (هذا الجدل الدائر في الوسط الغربي مفيدٌ لغيرهم؛ إذْ من المُهِمِّ -ونحن نتابع مِثْلَ هذه التطورات- أن تنتبه أُمَّتُنا لمثل هذه التجارِب، ويَتَّخِذ أهلُها من ذلك الدروسَ الكافيةَ؛ فإنه في مثل هذا الباب، ورغمَ الجدل الدائر حول الموضوع

---

(١٨٢) سبق (ص٨٢).

(١٨٣) مقال في حساب (الباحثون المسلمون) في الفيس بوك، بعنوان: "منكوشات تطوُّريَّة"، على الرابط المختصر: http://cutt.us/0jMz9

(١٨٤) «قطيع القِطَط الضَّالَّة»، سامي الزين ص١٣٥.

(١٨٥) المصدر السابق ص ١٣٦.

(١٨٦) فيلم وثائقي بعنوان: "مطرودون غير مسموح بالذكاء" (الدقيقة: ١:٠٠:٠٠)
https://www.youtube.com/watch?v=WZ9MYSa0Jiw&t=3656s

منذ مئات السنين؛ إلَّا أنَّهم لم يَصِلوا فيه إلى الحلِّ المُرِيح، ومِثْلُه ما حدث في بلاد المسلمين من جدال واسع بين القَدَريَّة والجَبْريَّة، فما استطاع أحدٌ منهما إيجادَ ما يُثبِت صحَّةَ كلامه؛ وهذا يعني أن المشكلة لن تجد حَلَّها في دائرة العلم، ولا في دائرة الفلسفة.

فأمَّا العلم: فها هي نظريَّاتُه تدفع بهم في اضطرابٍ دائمٍ من اليمين إلى اليسار، أو عكسه.

لذا رأى آخَرون أنَّ الحلَّ هو في الفلسفة، ومع ذلك فهي أكثرُ حَيْرةً في الباب!

فما بَقِيَ إلَّا العودةُ للحلِّ الدينيِّ الذي نجده في الوحيِ من كلام رب العالمين -سبحانه-، وهَدْيِ سيِّد المُرسَلين محمدٍ ﷺ)[١٨٧]. واللهُ تعالى أعلم.

المبحث الرابع: شبهة "مَن خلَق اللهَ؟":

في العهد النبوي -كما يروي أبو هُرَيرةَ ﷺ- جاء ناسٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ فسألوه: إنَّا نَجِدُ في أنفسِنا ما يَتعاظَمُ أحدُنا أن يَتكلَّمَ به، فقال ﷺ: **(وقد وجَدْتُمُوه؟)** قالوا: نعم. قال: **(ذاكَ صَرِيحُ الإيمانِ)**[١٨٨].

وقولُهم: (إنَّا نَجِدُ في أنفسِنا ما يَتعاظَمُ أحدُنا أن يَتكلَّمَ به) يَعْنُونَ: ما يَرِدُ عليهم من بعضِ وساوس الشيطان؛ مثل: مَن خلَق اللهَ؟ وما اللهُ؟ ونحو هذا، كما قال الهَرَويُّ[١٨٩] -رحمه الله- في شرحِه لهذا الحديث: (نجدُ في قلوبنا أشياءَ قبيحةً؛ نحو: مَن خلَق اللهَ؟ وكيف هو؟ ومِن أيِّ شيءٍ؟ وما أشبَه ذلك ممَّا يتعاظم النُّطق به؛ لِعِلْمِنا أنَّه قبيحٌ لا يَلِيق شيءٌ منها أن نعتقده)[١٩٠].

فهذه الشبهة ليست من الشُّبَهِ الجديدة، وإنما هي منذ عصرِ النبوة، كما في قوله ﷺ أيضًا: **(لن يَبرَحَ النَّاسُ يَتساءَلونَ، حتَّى يقولوا: هذا اللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ، فمَن خلَق اللهَ)**[١٩١]. وقد عالَجها -عليه الصلاة والسلام- العلاجَ الناجعَ، وأرشد إلى الدواء القاطع لهذه الوساوس وما شابَهَها -وسيَرِدُ معنا ذلك في الرَّدِّ على هذه الشبهة.

لكنَّ الملحدين في هذا العصر أعادوا الشبهةَ ونشروها، وجعلوها من المُعْضِلات الكبرى المُوجِبة للإلحاد والتَّنكُّرِ للخالق. وفي ذلك يقول الملحدُ برتراند راسل: (يمكنني القولُ: إنني عندما كنتُ فتًى، وكنت أناقش هذه المسائلَ بجِدِّيَّةٍ كبيرة في ذهني، قَبِلتُ -لمُدَّةٍ طويلة- حُجَّةَ السبب الأول.

---

[١٨٧] «النظريات العلمية الحديثة»، د. حسن الأسمري (١/٢٦٦).

[١٨٨] «صحيح مسلم» (١٣٢).

[١٨٩] علي بن سلطان محمد نور الدين المُلَّا الهَرَوي القاري: فقيه حنفي، من صدور العلم في عصره، وُلِد في هَرَاةَ، وسكن مكَّة وتُوُفِّي بها عام ١٠١٤هـ، له كتب كثيرة، منها: «تفسير القرآن»، و«شرح مُشْكِلات المُوطَّأ».

[١٩٠] «مِرْقاة المفاتيح شرح مِشْكاة المصابيح» (١/ ١٣٦).

[١٩١] «صحيح البخاري» (٧٢٩٦).

إلى أن جاء يومٌ -وكنتُ في الثامنةَ عشرةَ من العمر- قرأتُ فيه السِّيرةَ الذاتية لجون ستوارت ميل[١٩٢]، هناك وجدتُ هذه الجملةَ: لقد علَّمَني والدي أنَّ سؤالَ: "مَن صنَعَني؟" لا يمكن الإجابةُ عليه؛ نظرًا لأنه يُوحِي مباشرةً بسؤال آخرَ؛ هو: مَن صنَع الإله؟

تلك الجملةُ البسيطة للغاية أوضَحتْ لي -مثلما كنتُ أُفكِّر، وما أزال- المُغالَطةَ في حُجَّة السبب الأول. فإذا كان ينبغي أن يكون لكُلِّ شيءٍ سببٌ، إذن ينبغي أن يكون للإله سببٌ)[١٩٣].

أمَّا دوكينز فإنَّه لا يكاد يُذكَر الخالقُ عنده إلَّا ويسارع في إيرادِ هذه الشبهة، فهو يُكرِّرها في غالب لقاءاته، بل إنَّ كتابه المُسمَّى «وَهْم الإله» جعل هذه الشبهةَ هي محورَ عدم الإيمان بالله[١٩٤]، وكرَّر ذلك مرارًا في الكتاب، فقال مثلًا: (أيُّ إلهٍ قادرٍ على تصميم أيِّ شيءٍ، يجب أن يكون على مستوى أعلى من التعقيد، ويتطلب بدَوْرِه تفسيرًا، فكرةُ الإله تتطلب تراجعًا زمنيًّا لا مفرَّ منه، ولا يمكننا تفسيرُه)[١٩٥].

فهو -في كلامه هذا- يطرح أمرين:

الأول: أن المُصمِّم يجب أن يكون أعقدَ من الشيء المُصمَّم.

والثاني: أن فكرة الإله لا بدَّ أن تُرجِعنا إلى شيءٍ لا يمكننا تفسيرُه.

فأمَّا الأول فقد أوضحناه في مبحثِ (موقفه من الإله)، وأمَّا الثاني فسيأتي جوابُه وبيانه -بإذن الله- هنا.

ويقول أيضًا بشكل أوضح: (التصميم ليس بديلًا بالأساس؛ لأنه يؤدي لإثارة مشكلةٍ أكبرَ من المشكلة التي يحاول حلَّها: مَن خلَق الخالقَ؟)[١٩٦].

ويقول أيضًا مُؤكِّدًا موقفَه: (المؤمن يقول بأن الله عندما صمَّم الكونَ، فإنه وضع هذه القِيَمَ لهذه الثوابت الأساسية ... وكالعادة فإنَّ جوابَ المؤمن ليس مُقْنِعًا؛ لأنه يترك موضوعَ وجودِ الله بدون شرح)[١٩٧].

وأيضًا: (ربما يكون هناك مُصمِّم خارق، ولكن في هذا الحالة لن يكون مُصمِّمًا أتى من العدم بالتأكيد ... فإن المُصمِّم نفسَه يجب أن يكون نتيجةً لتراكم العديد من

---

[١٩٢] جون ستيوارت ميل: فيلسوف، اقتصادي بريطاني، وُلِد في لندن عام ١٨٠٦م، وتُوُفِّي عام ١٨٧٣م، وهو من أبرز رُوَّاد مذهب النفعيَّة. له عدَّة مُؤلَّفات، منها كتاب عن الحُرِّيَّة، وكتاب «أسس الليبرالية السياسية».

[١٩٣] «لماذا لست مسيحيًّا؟»، برتراند راسل، ص١٨.

[١٩٤] «فمَن خلَق اللهَ؟»، د. سامي عامري ص١٦.

[١٩٥] «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص١١١.

[١٩٦] المصدر السابق ص١٢٢.

[١٩٧] المصدر السابق ص١٤٥، وله كلام قريب من هذا في كتاب: «صانع الساعات الأعمى» ص١٩٧.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

أعمال الروافع والمصاعد، ربما نسخة داروينية في كونٍ آخرَ)(١٩٨).

وهنا يُؤكِّد لنا أنه لن يقبل بفكرةِ الإله دون تفسيرٍ، حتى ولو كان إلهًا خارقًا، فإنه سيفترض له تفسيرًا، ولو كان هذا التفسير شيئًا غيبيًّا مجهولًا لم يَثبُت ككونٍ آخرَ مثلًا.

وأختم عرضَ هذه الشبهة بقوله: (حُجَّة المسبِّب الأول تُفَنِّد نفسَها بنفسها؛ لأنك إن افترَضتَ أن الإله هو المُسبِّبُ الأول؛ ستواجه صعوبةً كبيرة في أن تفسِّر مِن أين جاء الإلهُ)(١٩٩).

يتضح من خلال هذا العرض الموجَز -وإلَّا فمقولاتُه المشابِهة لهذا كثيرةٌ- أن هذه الشبهة تُشكِّل حُجَّةً قوية -بالنسبة إليه- ضدَّ المؤمنين، ويعتقد أنها مُشكِلةٌ لا يمكن حلُّها أو التصدِّي لها، وأنها تضع المؤمنين في مأزِقٍ؛ ولهذا تَمسَّك بها وأكثَر من تَكرارها. لكنَّها -كما مرَّ معنا- شبهة قديمة، وقد أُجِيبَ عليها -ولله الحمد-، ولا تُمثِّل إشكالًا عند المؤمنين.

بعد هذا يتبين أن مُلخَّص شبهته هو: أن الإله لا بد أن يكون مُعقَّدًا(٢٠٠)، وأنه يحتاج إلى تفسيرٍ وبيان لمن خلق الخالقَ.

الرَّدُّ عليه:

قبل أن أبدأ، أَوَدُّ الإشارةَ إلى مقولتينِ لفيلسوفينِ معاصرينِ؛ أحدهما ملحد، والآخر مسيحي، عن مدى معرفة دوكينز بالفلسفة وعلومها.

يقول البروفسور الملحد "مايكل روس": (لقد كتبتُ أن كتاب «وَهْم الإله» قد جعلني أشعر بالخجل كملحد)؛ وذلك بسبب جهل دوكينز بالفلسفة؛ إذْ وصَفه بأنه: (مِثلُ طالبٍ جامعيٍّ في سنته الأولى، بإمكانه أن يسير بفخرٍ بين الناس سائلًا غيرَه بصوتٍ عالٍ: "ما سببُ وجود الله؟" وكأنَّه حقَّق كشفًا فلسفيًّا عظيمًا)(٢٠١).

وقال عنه الفيلسوف الأمريكي الشهير "ألفن بلنتنجا"(٢٠٢) في مراجعته النقدية لكتابه «وَهْم الإله»: (رغمَ حقيقةِ أنَّ هذا الكتاب فلسفيٌّ بالأساس، إلَّا أنَّ دوكينز ليس فيلسوفًا، بل هو بيولوجي ... بإمكانك أن تقول: إن بعض تَهجُّماتِه على الفلسفة هي في أفضلها غيرُ ناضجة، وإنْ كان في هذا الوصف ظلمٌ لعدم النضج؛ إذِ الحقيقةُ هي أن

---

(١٩٨) المصدر السابق ص١٥٨.

(١٩٩) مقطع بعنوان: "أفضل خمسة أسباب لعدم وجود إلهٍ"
https://www.youtube.com/watch?v=mHHM8P9YOxk

(٢٠٠) وقد تم إيضاح هذا كما تقدم (ص٤١).

(201)"Dawkins et al bring us into disrepute"
https://www.theguardian.com/commentisfree/belief/2009/nov/02/atheism-dawkins-ruse. بواسطة كتاب: «فمَن خلَق اللهَ؟»، د. سامي عامري ص١٧٨.

(٢٠٢) ألفن كارل بلنتنجا: فيلسوف تحليلي أمريكي، وُلِد عام ١٩٣٢م، أستاذ فخري للفلسفة في جامعة نوتردام، ويُعَدُّ -على نطاق واسع- أهمَّ فيلسوف مسيحي في العالم على قيد الحياة.

العديد من حُجَجِه تَستحِقُّ علامةَ فشلٍ مدرسيَّةً في حصَّةِ فلسفةٍ غيرِ ناضجة)(٢٠٣).

ثم بعد ذلك أقول: في البداية لا بد من التأكيد على ضرورة الاتفاق على أرضيَّةٍ صُلْبةٍ ننطلق من خلالها إلى بناء الحُجَج والبراهين في إثبات وجود الخالق -سبحانه-، وأنه غيرُ مخلوق. وهذه الأرضيَّةُ هي المبادئ الفطرية الضرورية التي يَتَّفِق عليها جميعُ العقلاء، ومَن تَنَكَّر لها فهو سفسطائي لا يمكن الوصولُ معه إلى أيِّ نتيجة.

وإذا تقرَّر هذا؛ فإنَّ (من المعلوم بالضرورة أن الحادث بعد عدمه لا بدَّ له من مُحْدِثٍ، وهذه قضية ضرورية معلومة بالفطرة حتى للصبيان؛ فإنَّ الصبيَّ لو ضربه ضاربٌ وهو غافل لا يُبصِره؛ لَقال: مَن ضرَبَني؟ فلو قيل له: لم يَضرِبْك أحدٌ. لم يقبل عقلُه أن تكون الضربةُ حدَثَتْ من غيرِ مُحْدِثٍ؛ بل يعلم أنه لا بدَّ للحادث من مُحْدِثٍ. فإذا قيل: فلانٌ ضربك. بكي حتى يضرب ضاربَه)(٢٠٤).

وقد كان ابنُ تيميَّة -رحمه الله- يرمي إلى معنًى في قوله: (الحادث بعد عدمِه)؛ إذْ هناك مُمكِنُ الوجود، وواجبُ الوجود.

- **فمُمكِنُ الوجود:** هو ما يقبل الوجودَ والعدمَ.
- **وأمَّا واجبُ الوجود:** فهو ما لا يمكن تَصوُّرُ عدمِه(٢٠٥).

فالحادثُ من قَبِيل المُمكِنِ الوجودِ، ووجودُه -سبحانه وتعالى- واجبُ الوجود، وقد أشار -سبحانه- إلى ذلك في قوله: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، (فكأنَّه -تعالى- يقول: لا يخلو الأمرُ من واحدةٍ من ثلاثِ حالات بالتقسيم الصحيح:

الأولى: أن يكونوا خُلِقوا من غيرِ شيءٍ؛ أي: بدون خالقٍ أصلًا.

الثانية: أن يكونوا خلَقوا أنفسَهم.

الثالثة: أن يكون خلَقهم خالقٌ غيرُ أنفسِهم.

ولا شك أن القسمينِ الأوَّلينِ باطلانِ، وبطلانُهما ضروريٌّ كما ترى، فلا حاجة إلى إقامة الدليل عليه؛ لوضوحه. والثالث هو الحقُّ الذي لا شك فيه؛ أنَّه هو -جَلَّ وعلا- خالقُهم المُستحِقُّ منهم أن يعبدوه وحدَه جلَّ وعلا)(٢٠٦).

وأنا حينما أستشهد بالآية، فإنِّي لا أستشهد بها بحُسْبانِ القرآن كتابًا دينيًّا، وإنما بحُسْبانِه كتابًا عقليًّا يُحاجَجُ به العقلاءُ -وهذا تَنَزُّلٌ مع المخالِف- فإنَّ في القرآن ضَرْبًا (يُستدَلُّ به على المُوالِفِ والمُخالِفِ؛ لأنه أمر معلوم عند مَن له عقلٌ؛ فلا يقتصر به

---

[٢٠٣] https://www.booksandculture.com/articles/2007/marapr/1.21.html?paging=off بواسطة كتاب: «فمَن خلق اللهَ؟»، د. سامي عامري ص١٥١.

[٢٠٤] «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٥٨).

[٢٠٥] «شرح المقاصد في علم الكلام»، التَّفْتازاني (١/ ١١٥).

[٢٠٦] «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٣/ ٤٩٤).

على الموافِق في النِّحلة)(٢٠٧).

ثم إن المؤمنين والملحدين يتفقون جميعًا على موجودٍ أزليٍّ تنتهي إليه الأشياء، ولكنهم يختلفون في تعيينه(٢٠٨)، ويدركون ضرورة استحالة تَسلسُلِ الموجودات عقلًا، ولكنَّ الملحدَ يأبى إلَّا التشغيبَ والتمسُّكَ بكُلِّ ما قد يُحقِّق له أهدافَه وهواه.

فقولُ: «مَن خلَق اللهَ؟» إذا عرَضتْ للإنسان المؤمن؛ فقد أرشد النبيُّ -عليه الصلاة والسلام- إلى علاجها بالاستعاذة إذا كانت وساوسَ وخواطرَ عارِضةً، وأمَّا إنْ كانت شبهةً مُستقِرَّةً فعلاجُها هو الاستدلال والنظر في إبطالها، كما قال الإمام المازِريُّ(٢٠٩) -رحمه الله-: (فإنَّ ظاهرَه أنه أمَرهم أن يدفعوا الخواطرَ بالإعراض عنها والرَّدِّ لها من غير استدلالٍ ولا نظرٍ في إبطالها. والذي يُقال في هذا المعنى: إن الخواطر على قسمين:

فأمَّا التي ليست بمُستقِرَّةٍ، ولا اجتَلَبَتْها شبهةٌ طرأت؛ فهي التي تُدفَع بالإعراض عنها. وعلى هذا يُحمَل الحديثُ، وعلى مِثْلِها ينطلق اسمُ الوسوسة؛ فكأنَّه لمَّا كان أمرًا طارئًا على غير أصلٍ، دُفِعَ بغير نظرٍ في دليل؛ إذْ لا أصل له يُنظَر فيه.

وأمَّا الخواطرُ المُستقِرَّةُ التي أوجَبَتْها الشبهةُ؛ فإنَّها لا تُدفَع إلَّا باستدلالٍ ونظرٍ في إبطالها)(٢١٠).

وقد لفت ابنُ تيميَّة -رحمه الله- الأنظارَ لفتةً جليلة في عِلَّةِ عدمِ ورود الاستدلالات في إبطال التسلسلِ والدَّوْرِ في كلام النبي -عليه الصلاة والسلام- بقوله: (والشبهاتُ القادحة في تلك العلوم لا يمكن الجوابُ عنها بالبرهان؛ لأنَّ غايةَ البرهان أن ينتهيَ إليها، فإذا وقع الشَّكُّ فيها انقطع طريقُ النظر والبحث. ولهذا كان مَن أنكر العلومَ الحِسِّيَّةَ والضرورية لم يُناظَر، بل إذا كان جاحدًا مُعانِدًا عُوقِبَ حتى يعترف بالحقِّ، وإنْ كان غالطًا إمَّا لفسادٍ عرَض لحِسِّه أو عقلِه؛ لعجزِه عن فهمِ تلك العلوم، وإمَّا لنحوِ ذلك؛ فإنَّه يُعالَج بما يُوجِب حصولَ شروط العلم له وانتفاءَ موانعه، فإنْ عجز عن ذلك لفسادٍ في طبيعته؛ عُولِج بالأدوية الطبيعية، أو بالدعاء والرُّقَى والتوجُّه ونحو ذلك، وإلَّا تُرِكَ.

ولهذا اتَّفَق العقلاءُ على أن كل شبهة تَعرِض، لا يمكن إزالتُها بالبرهان والنظر والاستدلال، وإنما يُخاطَب بالبرهان والنظر والاستدلال مَن كانت عنده مُقدِّماتٌ علمية،

---

(٢٠٧) «المُوافَقات»، الشاطبي (٣/ ٢٤٧).

(٢٠٨) «فمَن خلق اللهَ؟»، د. سامي عامري ص١٣٥.

(٢٠٩) محمد بن علي بن عمر التَّمِيمي المازَرِي (٤٥٣-٥٣٦هـ): مُحدِّث من فقهاء المالكية، نسبته إلى "مازر" [بفتح الزاي وكسرها] بجزيرة صِقِلِّيَّة، ووفاته بالمهدية، له عدة كتب، منها: «الكشف والإنباء في الرد على الإحياء للغزالي»، و«إيضاح المحصول في الأصول».

(٢١٠) «المُعْلِم بفوائد مسلم» (١/ ٣١٣).

وكان ممَّن يُمكِنه أن ينظر فيها نظرًا يُفِيده العلمَ بغيرها، فمَن لم يكن عنده مُقدِّماتٌ علمية، أو لم يكن قادرًا على النظر؛ لم تُمكِنْ مُخاطَبتُه بالنظر والاستدلال.

وإذا تَبيَّن هذا، فالوسوسةُ، والشبهةُ القادحة في العلوم الضرورية لا تُزال بالبرهان، بل متى فكَّر العبدُ ونظر؛ ازداد ورودُها على قلبه، وقد يغلبه الوسواسُ حتى يَعجِز عن دفعِه عن نفسه، كما يَعجِز عن حَلِّ الشبهة السوفسطائية)(٢١١).

إذَنْ فشبهةُ «مَن خلَق اللهَ؟» مُخالِفةٌ للفطرة التي تقضي باستحالة التسلسل، ولكن رغم هذا فإنَّ دوكينز عندما تَعرَّض لحُجَجِ الفيلسوف "توما الأكويني"(٢١٢) الخمس في إثبات وجود الله -ومع غلطه في عرضها بسبب ضعفه الشديد في معرفة مبادئ الفلسفة(٢١٣)؛ إلا أنَّني لن أتعرَّض لتصحيح مفهومه حولها، بل سأَرُدُّ عليه حسَبَ ما فَهِمَه وعرَضه-؛ فإنَّ كلامَه يُوحِي بأنه قد يقبل القولَ بإمكانية التسلسل، كما في قوله: (كلُّ الحُجَج الثلاث تعتمد على مبدأ التراجع الزمني، وتفترض «اللهَ» لإنهاء الدَّوَّامة، الافتراضُ الذي لا مُسوِّغ له هنا هو أن الله مَنِيعٌ عن الزمن)(٢١٤).

مع أنَّه هنا -في هذا الكلام- لم يَقُلْ صراحةً بإمكانيَّة التسلسل، إلَّا أنَّني لا أستبعد أن يميل إليه ويقول به؛ خاصَّةً أنَّ برتدراند راسل -الذي يحتفي دوكينز دائمًا بمقولاته- قد قال بإمكانه، فقد (أوضح "راسل" وجهةَ نظره كالتالي: كلُّ إنسانٍ موجود لديه أُمٌّ ... لكن من الواضح أن الجنس البشري ليس لديه أُمٌّ. بكلمة مُوجَزة: بما أنَّ كلَّ عضو فردي في التسلسل أصبح مُعلَّلًا؛ إذَنْ -بحكم الواقع- يصبح التسلسلُ بدَوْرِه مُعلَّلًا أيضًا، وبما أنَّ كلَّ عضو في السلسلة يَدِين بوجوده إلى عضوٍ آخرَ أو أكثرَ قد سبقه؛ فقد بات كلُّ عضوٍ في هذه السلسلة اللانهائيَّة مُعلَّلًا أيضًا؛ وبذلك يصبح لدى التساؤل عن سبب الكون الكُلِّيِّ مكانةٌ منطقية مختلفة عن السؤال حول عِلَّةِ وجودِ كلِّ جسمٍ فردي، أو حَدَثٍ ما داخلَ الكون)(٢١٥) (٢١٦).

---

(٢١١) «دَرْء تَعارُضِ العقل والنقل» (٣/ ٣١٠).

(٢١٢) توما الأكويني: قسيس قِدِّيس كاثوليكي إيطالي، وُلِد عام ١٢٢٥م، وتُوُفِّي عام ١٢٤٧م، فيلسوف، لاهوتي مُؤثِّر في الديانة المسيحية، من أبرز مُؤلَّفاته: كتاب «الخلاصة اللاهوتية».

(٢١٣) *لتوضيح هذا انظر: «نهاية حلم "وهم الإله"»، أ. د. أيمن المصري ص١٤٢، ومقطع د. سامي عامري بعنوان: "جناية داوكنز على الفلسفة في كتابه «وهم الإله»" (الدقيقة: ١٧)، على الرابط:*

https://www.youtube.com/watch?v=WrcVoxW2C88&t=1028s

(٢١٤) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٧٩.

(٢١٥) لدوكينز كلام قريب من هذا في «وهم الإله» ص١٤٩ يقول فيه: (العالم المتعدد الأكوان الأكوان يبدو نظريةً في غاية التبذير من ناحية عدد الأكوان، ولكنْ إذا كان كلٌّ من تلك

فـ"راسل" هنا يحاول في كلامه هذا أن يقول بأن التسلسل ممكنٌ، وللوهلة الأولى قد يبدو في الكلام نوعٌ من الصِحّة، لكنْ (نقول أوَّلًا: إنَّ مِثلَ هذا الكلام -مع زَيْفِه الذي سنُبيّنُه- كان يمكن أن يُقال قبل نظرية الانفجار العظيم، أمَّا مع القول بها فلا مكان له؛ لأننا إذا سلَّمْنا معها بأن للكون بداية مُطلَقة؛ فبأيِّ حقٍّ علمي نتحدث عن إمكانيةِ عِلَلٍ ومعلولاتٍ لا نهاية لها؟!

ثم نقول: حقًّا إنه إذا أمكن تفسيرُ وجودِ كلِّ فردٍ من أفراد سلسلة الموجودات الحادثة؛ فإنَّ وجودَ السلسلة لا يحتاج بعد ذلك إلى تعليل، وحقًّا أيضًا إنَّه ما كلُّ ما ينطبق على أفراد السلسلة يَلزَم أن ينطبق على السلسلة نفسِها.

لكنَّ المشكلةَ التي غفَل عنها القائلون بهذا الرأي: أن العلَّة التي تحتاج هي نفسها إلى علَّةٍ، لا تُفسِّر ما يُقال إنَّه معلولُها تفسيرًا كاملًا. إنَّ كثيرًا من النُّظَّار يخلطون بين التسلسلِ في الحوادث -أي: حادثٌ قبلَه حادثٌ، قبلَه حادثٌ ... إلى ما لا نهاية له، وهو مُمكِنٌ عقلًا-، والتسلسلِ الذي يُسمَّى بالدَّوْرِ القَبْليِّ الذي هو مُستحِيلٌ عقلًا، وحتى الذين فطنوا إلى التمييز بين التسلسلينِ أخطؤوا في ظنِّهم أن التسلسل في العِلَل والمعلولات هو من النوع الأول، مع أنَّ الحقيقة هي أنَّه من النوع الثاني.

لِنَفترِضْ جدلًا أنَّ السلسلةَ المتناهية التالية موجودةٌ فعلًا:

ح/ ع١ح / ع٢ح/ ع٣ح/ ع٤ح/ ع٥ح/ ع٦ح/ ع٧ح/ ع٨ح/ ع٩

إذا سألنا عن عِلَّة الحدث ح؛ قيل لنا: إنَّها ع١. لكنَّ ع١ هو نفسه حدثٌ، فلا بدَّ له إذَنْ مِن مُحْدِثٍ؛ فما مُحْدِثُه؟ إنَّه ع٢ الذي هو نفسه حدثٌ، ومُحْدِثُه الحَدَثُ ع٣، ومُحْدِثُ ٣ هو الحدثُ ٤، وهكذا حتى نصل إلى ح/ع٩، وهذه العِلَّةُ هي أيضًا حدثٌ؛ فما مُحْدِثُها؟

إذا لم يكن لها من مُحْدِثٍ؛ فإمَّا أن تكون هي أحدَثَتْ نفسَها، أو تكون قد جاءت من العدم، لكن كلا هذينِ الأمرينِ مستحيلٌ عقلًا.

إذَنْ ح/ع٩ غيرُ موجودة، وإذا كانت غيرَ موجودة فإنَّ ح/ع٨ التي افترضناها معلولةً لها غيرُ موجودة أيضًا، وهكذا حتى نصل إلى ح فنُقرِّر أنَّها غيرُ موجودة؛ لأنَّ عِلَّتَها ما كان يمكن أن تُوجَد.

وإذَنْ فالسلسلةُ التي افترضناها سلسلةً واقعيَّةً من العِلَل والمعلولات، ليست في الحقيقة إلَّا سلسلة وهميَّة من المعدومات.

إذا كان من المستحيل على مِثْلِ هذه السلسلة أن تكون غيرَ مُتناهِية؛ أَفَلا يمكن أن تكون مُتناهِيةً؟ كلَّا! لأنَّنا إذا افترضنا السلسلةَ غيرَ متناهية؛ فمعنى ذلك أنَّ ح لا تُوجَد إلَّا إذا وُجِدتْ عِلَّتُها ح/ع١، وهذه لا تُوجَد إلَّا إذا وُجِدتْ عِلَّتُها، وهكذا إلى ما لا نهاية له؛ أي

الأكوان بسيطًا في قوانينه الأساسية؛ إذَنْ فنحن هنا لا نفترض أشياءَ بدرجة عالية من اللا احتمال، ولكن العكس يُقال في أيِّ نوع من أنواع الوجود الذكي).

[٢١٦] «الله والفيزياء الحديثة»، بول دافيز ص٥٢.

إنَّ ح لن تُوجَد حتى يُوجَد عددٌ غيرُ مُتناهٍ من العِلَل والمعلولات قبلها. ولكن هذا معناه أنَّ وجودَها عُلِّقَ على شرطٍ يستحيل أن يتحقق، فهي إذَنْ لن توجد أبدًا.

إنَّ مثلَ هذا -كما كان يقول بعضُ المتكلِّمين الإسلاميِّين- كمثل قولك لإنسانٍ: "لا أُعطِيكَ درهمًا حتى أُعطِيَك درهمًا قبلَه"، فلن تُعطِيَه إذَنْ درهمًا أبدًا)(٢١٧).

ثم إن هناك أسئلة بلا معنى، ولا يمكن الإجابة عليها، كما يقول دوكينز -نفسه- عندما أراد نفيَ سؤال الغاية، وعدم إمكانيَّة جواب الدين عليه: (وعلى عكس الكليشيهات الأخرى، ليست حتى صحيحةً التي تقول بأن العلم يبحث في أسئلةٍ من نوع «كيف»، بينما الدينُ هو المجال الوحيد المُهيَّأ للإجابة عن «لماذا»، وما تعريفُ «السؤال لماذا» بحَقِّ السماء؟ لا يمكن اعتبار كل عبارة تبدأ بكلمة «لماذا» سؤالًا شرعيًّا، لماذا حصان وحيد القرن أجوف(٢١٨)؟ بعض الأسئلة ببساطة لا تَستحِقُّ أجوبةً، ما لونُ التجريديَّة؟ ما رائحةُ الأمل؟ كونُ الجملةِ صحيحةً إعرابيًّا لا يجعلها ذاتَ معنًى، أو أنه يجب أخذُها بجِدِّيَّةٍ)(٢١٩).

فهنا في كلامه هذا ردٌّ على نفسه؛ إذْ توجد أسئلةٌ خاطئة بلا معنى؛ كقولِنا: «ما رائحةُ الأمل؟» فكونُ السؤالِ سليمًا في إعرابه لا يعني صحَّةَ معناه، وكذلك سؤالُ «مَن خلَق اللهَ؟» فإنه سؤالٌ بلا معنى؛ إذْ إنَّ هذا السؤال باطلٌ في أصله؛ كقولنا: ما طولُ الضِّلع الرابع للمُثلَّث؟ أو ما الذي سبق الشيءَ الذي لا شيءَ قبله؟ أو قول مثلًا: إذا كان رقمُ واحد أوَّلَ الأرقام؛ فما الرقمُ الذي قبله؟(٢٢٠).

(فهذه الأسئلة كلُّها باطلةٌ؛ لأنها مُتضمِّنة للتناقض الداخلي في بِنْيَتِها، حيث يتضمن كلُّ سؤالٍ منها الإقرارَ بالشيء، ثم السؤالَ عن إمكانيَّةِ نقيضه. وكذلك الحالُ في سؤالِ مَن سأل: «مَن خلق اللهَ؟»، فإنَّ حقيقةَ قولهم تنتهي إلى: إذا كان اللهُ لا أوَّلَ لوجوده، ولا خالق له، وهو خالقُ كلِّ شيء في الكون؛ فمَن خلق اللهَ؟!)(٢٢١).

وأيضًا فإنَّ من العجيب و(الطريف أنَّ دوكينز هو الذي يحتفي بحِجَاجِيَّةِ برتراند راسل، بأننا إذا آمَنَّا بالإله؛ فسنَضطَرُّ أن نسأل: «لماذا، وكيف، ومَن خلَق الإلهَ؟» إنَّ دوكينز هو أكثرُ مَن يستعمل سؤال الغاية والكيفية، لكنه يرفضه حينما يجد أنَّ سِياجَه الدُّوغمائي سينكسر حينما تُوجَّهُ إليه مشكلةُ هذا السؤال)(٢٢٢).

---

(٢١٧) «الفيزياء ووجود الخالق»، أ. د. جعفر شيخ إدريس ص١١٠-١١٤ بتَصرُّفٍ.

(٢١٨) دُمْية من وحي الخيال على شكل حصان ولها قرن.

(٢١٩) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٥٨.

(٢٢٠) «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث»، د. سلطان العميري (١٦٨/٢)، و«شموع النهار»، عبد الله العجيري ص١٥١، و«الفيزياء ووجود الخالق»، أ. د. جعفر شيخ إدريس ص١٢٢.

(٢٢١) «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث»، د. سلطان العميري (١٦٩/٢).

(٢٢٢) «نقد "وهم الإله"»، عبد اللطيف الحرز ص٢٣٨.

مِن جانب آخرَ، فإنَّ دوكينز يُقِرُّ بأنَّ العلمَ لو اكتشف الخالقَ فإنه سيكون شيئًا عظيمًا لا يمكن وصفُه، كما في قوله: (أعتقد أنه سيكون شيئًا مُدهِشًا ومُذهِلًا وشيئًا يَصعُب فهمُه، وأنَّ كلَّ التصورات اللاهوتيَّة ستكون محدودةً وبسيطة بالمقارَنة ... إنَّه سيكون أكثرَ عَظَمةً، وأكبرَ وأكثرَ جمالًا، وأكثرَ روعةً، وسوف يَلحَق العارُ بعلم اللاهوت)(٢٢٣).

بل إنْ أرَدْنا تفسيرَه -مع التحفُّظ على هذه اللفظة- فسنحتاج إلى شرحٍ ديناصوريٍّ لذلك، كما يقول: (الإله القادر على مُراقَبة كلِّ جُزَيْءٍ من الكون والتحكُّمِ فيه، لا يمكن أن يكون بسيطًا، وجودُه يحتاج لشرح ديناصوري ضخم ليُوفِّيَه حقَّه)(٢٢٤).

ومُؤدَّى هذا الكلام ينتهي إلى قولِ الله -تبارك وتعالى- عن نفسه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وفي النهاية، فإنَّ سؤالَ «مَن خلَق اللهَ؟» ما هو إلَّا سؤالٌ للتشويش فقط؛ ذلك أنَّ دوكينز يُقِرُّ أنَّ هناك بداية للحياة، وقد بدأها شيءٌ ما، لكنه يقول: إنَّه لا يعرف ما هذا الشيء، رغم افتراضه عددًا من الأمور -ليس اللهُ الخالقُ واحدًا منها- كالمخلوقات الفضائية، أو تَعدُّدِ الأكوان(٢٢٥).

ولعلَّ في ما سبق إيرادُه إيضاحًا وبيانًا لرَدِّ هذه الشبهة، والله -تعالى- أعلم.

المبحث الخامس: موقفه من بعض أحكام الإسلام:

في المباحث السابقة عرَضتُ عدَّةَ شبهات من قِبَل دوكينز تتعلق بالأديان عمومًا، وفي هذا المبحث سأتطرق لشبهاته التي طرحها حول الإسلام وأحكامه؛ ذلك أن دوكينز لم يَكْتَفِ بنقد الأديان جملةً، بل حاول الدخولَ في تفاصيل الإسلام، والتشغيبَ على مُعتنِقِيه بطرحِ بعض القضايا الجانبية التي يكون فيها مجال للتلاعب بالعواطف واستثارة لمشاعر الناس، مُتنصِّلًا من القضية الكبرى التي يجب أن يكون النقاشُ حولها؛ وهي: قضية وجود الخالق.

وهذه الطريقة قديمة عند الملاحدة؛ (لأنهم لا يجدون غيرَها مَهْرَبًا؛ إذْ يَحصُرهم مناظروهم من أصحاب الحقِّ في دائرةٍ لا يملكون فيها غيرَ التسليم، فإذا وجدوا أنفسَهم كذلك قفَزوا بحبال الاستطراد إلى دائرة أخرى)(٢٢٦).

---

(٢٢٣) God... in other words، Ruth Gledhill، Religion Correspondent، The Times، May 10، 2007. بواسطة كتاب: «شموع النهار»، عبد الله العجيري ص٢٣٨.

(٢٢٤) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص١٥١.

(٢٢٥) فيلم وثائقي بعنوان: "مطرودون غير مسموح بالذكاء" (الدقيقة: ١:٢٧:٠٠) https://www.youtube.com/watch?v=WZ9MYSa0Jiw&t=3656s

(٢٢٦) «كواشف زيوف»، عبد الرحمن حَبَنَّكَة ص١٣٧.

فمِن شبهاته قولُه عن الحجاب: (أحدُ أكثرِ المشاهد المُحْزِنة التي نراها في شوارعنا وساحاتنا هذه الأيَّامَ: هي لامرأةٍ مُتَّشِحةٍ بسَوادٍ لا شكلَ له، من قمَّةِ رأسها حتى أَخْمَصِ قدَمَيْها، ترى العالمَ من شَقٍّ ضيِّق)(٢٢٧).

وقال واصفًا الحياةَ في أحد الدول الإفريقية: (ثمَّة نساءٌ في نقاب أسودَ كالغِرْبان يَمْشِينَ خانعاتٍ)(٢٢٨).

فهذا جزء من أقواله في ما يَخُصُّ الحجابَ.

وله أيضًا كلامٌ في حكم الرِّدَّةِ عن الإسلام؛ فقد قال بعد ذِكْرِ قصصٍ لبعض المرتدين عن الإسلام: (ولْنتذكَّرْ هنا بأن الرِّدَّةَ لا تعني أيَّ ضررٍ يَلحَق بشخصٍ أو أيِّ شيء آخرَ، إنها فقط جريمة فكرية ... والعقوبةُ الرسمية في القانون الإسلامي هي الموت)(٢٢٩).

ومن جانب آخرَ طرح في أحد عباراته شبهتينِ حول الإسلام، فقال: (لاحقًا عاد محمدٌ وأتباعُه للجذور اليهودية التوحيدية الصارمة، بدون أن يأخذوا خصوصيَّتَها العِرْقيَّةَ، ونشأ الإسلامُ على كتاب مُقدَّس جديد اسمُه «القرآن»؛ الذي احتوى على تَوجُّهٍ فكريٍّ جديد، أَلَا وهو نشر الدين بالقوة العسكرية)(٢٣٠).

فأمَّا الشبهة الأولى: فهي أن الإسلام مأخوذٌ من الجذور اليهودية.

والشبهة الثانية في كلامه هذا: هي أن الإسلام يَحُثُّ أتباعَه على نشره بالقوة العسكرية.

ومن شبهاته أيضًا أنَّه نقل -مُؤيِّدًا- كلامًا لأحدِ المرتدين عن الإسلام: أن القرآن متناقضٌ، وأن علماء الإسلام اخترعوا النَّسْخَ لتغطية هذا التناقض، فقال: (القرآن خليط من كل شيء، لو أردتَ السلامَ فهناك آياتٌ مُسالِمةٌ، ولو أردتَ الحربَ فستجد آياتٍ جهاديَّةً. سوكديو(٢٣١) يشرح كيف طوَّر علماءُ الإسلام -في محاولةٍ للالتفاف حول التناقضات العديدة في القرآن- مبدأَ الناسخ والمنسوخ؛ حيث إن النصوص المتأخِّرة تنسخ النصوصَ المبكِّرة)(٢٣٢).

وكعادته في طرح نفسه رجلًا عقلانيًّا مُحِبًّا للدليل، وصف المسلمين بأنهم

---

(٢٢٧) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٣٦٨.

(٢٢٨) «العلم والحقيقة»، ريتشارد دوكينز ص٤٠٧.

(٢٢٩) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٢٩١، و«حوارات سيدني»، ترجمة: قيس العجرش ص١٢٥.

(٢٣٠) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٣٩.

(٢٣١) باتريك سوكديو: كاهن إنجليكاني، مُرتَدٌّ عن الإسلام، باكستاني الأصل، وُلِد عام ١٩٤٧م، يعمل مديرَ معهد دراسة الإسلام والمسيحية.

(٢٣٢) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٣١٢، و«حوارات سيدني»، ترجمة: قيس العجرش ص١٢٤.

يُعلِّمون أبناءَهم الإيمانَ الأعمى دون سؤال أو استفسار، كالمسيحيين، فقال: (المسيحيَّةُ، تمامًا كالإسلام، تُعلِّم الأطفالَ بأن الإيمان دون سؤال هو فضيلةٌ، لا يجب عليك أن تُجادِل بما يؤمن به أحدٌ. عندما يعلن أحدٌ ما بأن شيئًا ما هو جزء من مُعتقَدٍ؛ فإنَّ بقيَّةَ المجتمع -سواء كان مؤمنًا بالشيء نفسِه، أو بشيء مختلِف، أو حتى بلا شيء- مُجْبَرٌ بشكلٍ مزروع فينا أن يحترم ذلك بدون أيِّ سؤال ... فالخطر الحقيقي في الموضوع يكمن في أن الأطفال يتمُّ تلقينُهم بأن المعتقَد بحدِّ ذاته فضيلةٌ)(٢٣٣).

وأخيرًا قال في أحد حواراته مستهزئًا بمُحاوِره المسلم: (وأنت من خلال إيمانك بأنك مسلم، هل تؤمن حقًّا بأن النبيَّ محمدًا قد شَقَّ القمرَ إلى نصفينِ؟ هل تؤمن بالفعل بأن محمدًا طار إلى الفضاء على ظهرِ حصانٍ مُجنَّح؟)(٢٣٤). يعني بسؤاله: أن هذا لا يمكن تصديقُه.

فهذه الشبهات هي أبرز ما طرحه حول الإسلام وأحكامه، وإلَّا فكلامُه عن الإسلام كثيرٌ يطول استقصاؤه، ولكن غالبه يمكن ردُّه إلى أصل واحد.

إذَنْ بعد هذا يتبين أن جملة شبهاته عن الإسلام هي: في الحجاب، وحكم الرِّدَّة، ونقلِ الإسلام من اليهودية، ونشرِ الإسلام بالقوة، واختراعِ النَّسْخ لتغطية التناقض في القرآن، والإيمانِ دون دليلٍ، وعن المعجزات.

الرَّدُّ عليه:

في البداية لا بدَّ من التأكيد على أن الرَّدَّ على دوكينز من المفترَض أن يتوجه إلى إثباتِ الخالق أوَّلًا، وإثباتِ صفاته وكماله؛ أمَّا الغوصُ في فروع الدين ونقدُها دون الإيمان أصلًا بالخالق فهو نوع من العبث والتشغيب. ولكن أمَا وقد طُرِحتْ هذه الشبهاتُ من قِبَل شخصٍ له أتباعٌ ومُؤيِّدون؛ فإنَّه لا بد من الرَّدِّ عليها.

وأَوَدُّ أن أشير أيضًا أن دوكينز قد صرَّح بوضوحٍ بعدم معرفته بالقرآن، كما في قوله: (في الحقيقة لا أعرف الكثيرَ عن الإله المذكور في القرآن)(٢٣٥)؛ ومعناه: أنَّه لم يقرأ القرآنَ، ولا يعرف عنه شيئًا، لا أنه لا يعرف الكثيرَ.

وبالنسبة لشبهاته:

ففي كلامه عن الحجاب، فإن الإسلام لمَّا ظهر، جاء بالآداب العالية والأخلاق السامية، فأَقَرَّ ما كان حسنًا، وأنكر ما كان سيِّئًا، دون تفرقةٍ بين الجنسين، بل إنَّه كرَّم المرأةَ بعد امتهانها، ورفع منزلتَها، كما قال عمرُ ﷺ: (كُنَّا في الجاهليَّةِ لا نَعُدُّ النِّساءَ شيئًا، فلمَّا جاء الإسلامُ وذكَرَهُنَّ اللهُ؛ رأَيْنا لهُنَّ بذلك علينا حقًّا)(٢٣٦).

---

(٢٣٣) «وهم الإله»، ريتشارد دوكينز ص٣١١-٣١٣.

(٢٣٤) «حوارات سيدني»، ترجمة: قيس العجرش ص١١٦.

(٢٣٥) «حوارات سيدني»، ترجمة: قيس العجرش ص١٠٨.

(٢٣٦) «صحيح البخاري» (٥٨٤٣).

وشَهِدَ بذلك أيضًا غيرُ المسلمين؛ فقد قال ويل ديورانت(٢٣٧) عن الإسلام: (رفع من مقامِ المرأة في بلاد العرب ... وقضى القرآنُ على عادةِ وَأْدِ البنات، وسوَّى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي، وجعل مِن حقِّها أن تشتغل بكل عمل حلال، وأن تحتفظ بمالها ومكاسبها، وأن تَرِثَ، وتتصرف في مالِها كما تشاء)(٢٣٨).

ومن جملة التَّكرِمة والرفعة: فرضُ الحجاب؛ حيث إن فيه سترًا للمرأة، وحفظًا لها، وهذا من جملة الفطرة التي فُطِرَ عليها الناسُ، (وقد فطر اللهُ آدمَ وحوَّاءَ - وهما أول البشر- على العفاف والستر، فلمَّا أكلا من الشجرة، وسقط عنهما لِباسُهما؛ دعاهم داعي الفطرة والطبع الذي خُلِقوا عليه، إلى رِدَّةِ فعلٍ؛ طلبًا للستر؛ فأخذا يجمعانِ الورقَ ويُؤلِّفانِه بعضَه إلى بعض؛ ليستر عَوْراتِهما. وفي ذلك قال اللهُ: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ ﴾ [الأعراف: ٢٢])(٢٣٩).

وقد شرع اللهُ -سبحانه- ما يُحقِّق العفافَ للمجتمع عمومًا، والمرأة خصوصًا، بما يتوافق مع الفطرة الصافية، وجعل -سبحانه- أمرَ ضبطِها إليه؛ فإنَّه (لمَّا كانت فطرةُ الستر تتجاذبها العقول، وأهواء النفوس وشبهاتها، وتزيين الشيطان على الإنسان؛ جاءت الشريعة من الله ضابطةً له، وحاكمةً عليه بنصوص كثيرة في جميع الشرائع ورسالات الأنبياء على كل الأُمَم)(٢٤٠).

ومن جانب آخرَ، فإنَّ دوكينز يَرُدُّ على نفسِه بقوله: (ليس لدى العلم مناهجُ لتقرير ما الذي يكون أخلاقيًّا، فهذا أمرٌ من شأن الأفراد والمجتمع)(٢٤١). فإذا كانت الأخلاق خاضعةً للأفراد والمجتمع -كما يزعُم-؛ فلماذا يَحشُر نفسَه ويستهزئ بعاداتِ أكثرَ من مليار شخصٍ مسلم على مستوى العالم؟!(٢٤٢)

وأخيرًا فإنَّ الملحدين من أكثر الناس عنصريَّةً تُجاهَ المرأة، وينظرون لها على أنها دون الرجل، وليس المقصودُ حشدَ المقولات حول هذا، ولكن الهدف هو الإشارةُ لذلك(٢٤٣).

وأمَّا كلامُه عن الرِّدَّة؛ فصحيحٌ فيما يَخُصُّ أن العقوبة هي القتل، ولكن ليس كما

---

(٢٣٧) ويليام جيمس ديورانت: وُلِد عام ١٨٨٥م، وتُوُفِّي عام ١٩٨١م: فيلسوف، مُؤرِّخ، كاتب أمريكي، أشهرُ مُؤلَّفاته: كتاب «قِصَّة الحضارة».

(٢٣٨) «قصة الحضارة» (١٣/ ٦٠).

(٢٣٩) «الحجاب في الشرع والفطرة»، عبد العزيز الطريفي ص٢٦.

(٢٤٠) المصدر السابق ص٢٨.

(٢٤١) «العلم والحقيقة»، ص٦٦.

(٢٤٢) «شموع النهار»، عبد الله العجيري ص٦٧.

(٢٤٣) للاستزادة انظر: كتاب «المرأة بين الداروينية والإلحاد»، إصدار: مركز دلائل.

يتصوره ويُصوِّره دوكينز للقارئ؛ إذْ إن هناك اعتبارات لإقامة هذا الحكم.

وأمَّا قولُه: (إنَّها مُجرَّد جريمةٍ فكرية)؛ فخطأٌ بيِّنٌ؛ إذْ إن الرِّدَّة هدمٌ للمجتمع من أصوله، فالتمرُّدُ على الشريعة يُعَدُّ إخلالًا بالمنظومة الاجتماعية، وزعزعةً لثوابت المجتمعات، فلا يمكن لأيِّ مجتمع أن ينموَ وينهض دون وجودِ قواعده الأساسية التي ينطلق من خلالها لضبطِ جميع شؤون حياته.

وقد شرع الإسلامُ هذا الحُكمَ لعدَّةِ حِكَمٍ:

منها: (الحفاظُ على الكِيانات المُقدَّسة التي تُمثِّل المرجعيَّةَ في كل مجتمع إنساني.

وأيضًا: الحفاظ على النظام العامِّ للمجتمع المسلم؛ فإنَّ إعلانَ الرِّدَّة ليس انتهاكًا لكيان مُقدَّس في الإسلام فقط، ذلك أن الإسلام ليس مُجرَّدَ عقيدة قلبية فحَسْبُ، ولا هو مجرد عبادات فردية، وإنما هو نظام وإيمان مُلْزِمٌ للمجتمع، لا يقبل التساهل فيه.

فإعلانُ المُرتَدِّ لرِدَّتِه هو في الحقيقة تَمرُّدٌ على النظام، فهي ليست موقفًا عقليًّا مُجرَّدًا، وإنما هي عملية مُركَّبة مُعقَّدة، تتضمن تغييرَ الولاء وتبديلَ الهُوِيَّة وتحويلَ الانتماء، فالمرتدُّ يَنقُل ولاءَه من أُمَّة لأُمَّة.

والأمر الثالث من الحِكَم: هو دفعُ الأضرار النفسية والرُّوحية عن المجتمع؛ إذْ إن أعظم شيء لدى الإنسان هو الدين، وإعلانُ الرِّدَّة يتسبب في الضرر بمشاعر المسلمين؛ إذْ إن المرتدَّ يقول في حقيقته: إنَّه جرَّب الإسلامَ فوجده دينًا لا يستحقُّ التمسُّكَ به. وقد يؤدي ببعض المسلمين الضعفاء في التصور والدين إلى الوقوع في الرِّدَّة.

الأمر الرابع من الحِكَم: هي المُعالَجاتُ الاستباقية التي سعى الإسلامُ إلى تحقيقها؛ وذلك بقطع الطريق على أصحاب الحِيَل والخداع والمكر الذين يدخلون في الإسلام ويخرجونِ منه ليخدعوا الناسَ، كما صوَّرها -سبحانه- في قوله: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾ [آل عمران: ٧٢]، فهذه مَكِيدةٌ أرادها بعضُ أهل الكتاب ليَلْبِسوا على الضعفاء من المسلمين أمرَ دينهم)[٢٤٤].

إنَّ مَن ارتدَّ وترك دينَه، ولم يُعلِن ذلك؛ لن يتعرض له أحدٌ. إنَّما المُعلِنُ لرِدَّتِه، الذي بإعلانه سيَتعرَّض لثوابت المسلمين وقِيَمِهم؛ فهذا هو الذي تجب محاسبتُه.

ومع هذا فإنه ينبغي التأكيدُ على أن الإسلام لا يُجْبِر أحدًا على الدخول فيه، كما في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال ابنُ كثير -رحمه الله-: (أي: لا تُكْرِهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام؛ فإنَّه بيِّنٌ واضحٌ، جَلِيٌّ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكرَهَ أحدٌ على الدخول فيه؛ بل مَن هداه اللهُ للإسلام وشرح صدره ونوَّر بصيرته؛ دخل فيه على بيِّنة، ومَن أعمى اللهُ قلبَه وختم على

---

[٢٤٤] «فضاءات الحرية»، د. سلطان العميري ص٣٨٢-٣٩٢ باختصار.

سمعه وبصره؛ فإنَّه لا يفيده الدخولُ في الدين مُكْرَهًا مقسورًا)[٢٤٥].

وأمَّا أن الإسلام مأخوذ من اليهودية؛ فهذا جهل عظيم يدل على عدم معرفته بالإسلام -وقد صرَّح بذلك كما تَقَدَّم-، ولا بنبيِّ الإسلام -عليه الصلاة والسلام-؛ وذلك أن القرآن يُصرِّح أنه جاء مُتمِّمًا ومُصحِّحًا للأديان السابقة التي فرضها اللهُ -سبحانه-، كما في قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨]، وصرَّح بالتشابه كما في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ [الشورى: ١٣]، وما ذاك إلَّا لأنَّ المصدرَ واحدٌ والمَشْرَعَ واحدٌ، ولهذا كان التشابه موجودًا.

لا أنَّ الإسلامَ أخذ شرائعَه من اليهودية أو غيرها؛ فإنَّ هذه الدعوى التي يُطلِقها دوكينز -وهو مسبوقٌ بها من كُفَّار قريشٍ قبل المستشرقين- هي دعوى بدون دليل ولا إثبات، بل مُجرَّد إطلاقٍ دون برهانٍ؛ وقد ردَّها القرآنُ، كما في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فهذا يدل على أن النبي -عليه الصلاة والسلام- لم يكن له معرفةٌ بالكتب السابقة، فقوله تعالى: (﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أي: ليس عندك علمٌ بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية؛ بل كنتَ أُمِّيًّا لا تَخُطُّ ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتابُ)[٢٤٦].

والكلامُ في هذا المجال طويل، ولم يُقدِّم مُدَّعِيه دليلًا عليه، وليس المقصودُ استقصاءَ الردود كاملةً على هذه الشبهة -فليس هذا موضعَه-، ولكنْ أشير إلى أنه مع وجود التشابه بين القرآن والكتاب المقدَّس؛ إلَّا أنَّه (لا يزيد بحالٍ من الأحوال عن مئةِ آيةٍ)[٢٤٧]، وذلك من أصل (٦٢٣٦ آية)؛ أي: ما يساوي (١.٦%).

ثُمَّ إنَّ الكتابَ المقدَّس لم يكن قد تُرجِمَ إلى اللغة العربية في زمن النبي -ﷺ-؛ ولذا فإنه (بعد سَبْرِنا لموضوع احتمالِ وجود ترجمة عربية للكتاب المقدَّس زمنَ البَعْثة النبوية أو قبلها؛ نَخلُص إلى:

- غياب أيِّ دليل مادِّيٍّ مباشر على وجود ترجمة عربية للكتاب المقدَّس زمنَ البعثة النبوية؛ وهو ما يُشكِّل حُجَّةً ملموسة لا يمكن نقضُها إلَّا بدليل يوازيها أو يَفُوقها.
- غياب أيِّ أثرٍ لترجمة عربية في الموروث الديني والأدبي الجاهلي.
- اعتماد أقدم الترجمات العربية لأسفار الكتاب المقدَّس على أصول يونانية وسريانية

---

[٢٤٥] «تفسير ابن كثير» (١/ ٦٨٢).

[٢٤٦] «تفسير السعدي» ص٧٦٢.

[٢٤٧] «تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المُبْطِلين»، د. منقذ السقار ص٦٧.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

وقبطية، يُؤكِّد غيابَ ترجمة عربية أقدمَ يستنسخ منها)[٢٤٨].

لذا فإنْ (كان القول باطِّلاع محمدٍ على أسفار أهل الكتاب، ودراسته لها دراسةً نقديَّة عميقة، فاقدًا للمستنَد التاريخي؛ لِمَا ثبت من أُمِّيَّتِه -ﷺ-، وعدم وجود ترجمة عربية في زمنه؛ فلم يَبْقَ بعد ذلك إلَّا أن يفترض المخالِفُ أن محمدًا -ﷺ- العربيَّ الأُمِّيَّ قد تلقَّى علومَ أهل الكتاب عن غيره ... وأقوى احتمالاتِ وجود مُعلِّمٍ لنبي الإسلام -ﷺ- هو زعمُ وجودِ مُدرِّسٍ له قبل البعثة؛ فإنَّ ذلك يتيح مساحةً من الزمان للعلم بتفاصيل أخبار أهل الكتاب.

ولكنَّ هذا الاحتمال مُواجَهٌ بمعارضات قوية: فحياةُ محمدٍ معلومةٌ للقاصي والداني؛ ممَّا يجعل الزَّعمَ بأن نبيَّ الإسلام قد عكف الشهورَ والسنين في دراسة التوراة والإنجيل قولًا مردودًا بداهةً، ولو أنَّ قومَه كانوا قد علموا أنه قد قضى رَدَحًا من عمره يَدرُس الدينَ اليهوديَّ والدينَ النصرانيَّ على يد علماء أهل الكتاب، لحَدَّدوا لنا المكان والزمان اللَّذينِ قُدِّمتْ له فيهما هذه العلومُ الكتابيَّةُ الغزيرةُ والمُعقَّدةُ، التي جعلته يُجِيب ببراعةٍ فائقةٍ على كل الأسئلة التي وجَّهها له أهلُ الكتاب، حتى إنَّه لم يتراجع عن إجابة قدَّمها)[٢٤٩].

هذا في ما يَخُصُّ شبهةَ الأخذ من اليهودية.

وأمَّا دعوى أن الإسلام انتشر بالقوة؛ ففيه خلطٌ وسوءُ فهمٍ للإسلام وأحكامِه؛ ذلك أن القرآن يصرِّح بعدم إجبار الناس على الإسلام، وترك أمر الاختيار لهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ومعناه أن هذا الدين هو (دين الحق والرُّشد، فلكماله وقَبول الفطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تَنفِر عنه القلوبُ، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لِمَا تخفى براهينُه وآياته)[٢٥٠].

وأيضًا قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]. فقولُه: (﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ أي: ليس ذلك عليك ولا إليك)[٢٥١]. فهذا بيان واضح في عدم الإكراه على الإسلام.

وإنما انتشرت هذه الشبهة على يد أعداء الإسلام؛ لتشويه صورته، وتنفير الناس منه. وقد شهد بذلك مَن ليس على دين الإسلام؛ فهذا هو "نبيل لوقا"[٢٥٢] يقول:

---

[٢٤٨] «هل القرآن الكريم مُقتبَسٌ من كتب اليهود والنصارى؟»، د. سامي عامري ص١٢٥.

[٢٤٩] المصدر السابق، ص١٦٥ بتَصرُّفٍ يسيرٍ.

[٢٥٠] «تفسير السعدي» ص٩٥٤.

[٢٥١] «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٩٨).

[٢٥٢] نبيل لوقا بباوي: دكتور مصري، عضو مجلس الشورى المصري، من مواليد قرية بهجور عام ١٩٤٤م، باحث يؤمن بالمسيحية الأرثوذكسية، له العديد من المؤلَّفات في الشؤون المسيحية والإسلامية والاقتصادية.

(مِن خلال قراءاتي في عشرات الكتب التي تتعلق بانتشار الإسلام، وهل هو انتشر بحَدِّ السيف من عدمه، وعشرات الكتب في التاريخ الإسلامي؛ وجدتُ من واجبي القومي الرَّدَّ على كلِّ ما يُثار من انتشار الإسلام بحَدِّ السيف، وأنه دينُ عنفٍ؛ لذلك تَوَلَّدت فكرةُ هذا الكتاب.

ورغم أني مسيحي، ولستُ من أتباع الديانة الإسلامية؛ وجدتُ من واجب الأمانة العلمية التعرُّضَ لهذا الموضوع -وهو انتشارُ الإسلام بحَدِّ السيف-؛ لبيان الحقيقة: هل انتشر الإسلامُ بحَدِّ السيف فعلًا، أم أنها موجاتٌ من الافتراء يُطلِقها أعداء الإسلام؟

لذلك قرأتُ أكثرَ من خمسين كتابًا تَعرَّضتْ لهذا الموضوع، كتبها كُتَّابٌ مسلمون وكُتَّابٌ مسيحيُّون، وخاصَّةً من الغرب؛ بعضُهم يعرض الموضوع بموضوعيَّة تاريخيَّة بعيدًا عن التعصب الأعمى، وبعضهم يعرض الموضوعَ بالغمز واللمز الذي يَقطُر السُّمُّ فيه من مداد قلمه.

لذلك يجب إعادةُ مخاطَبة الغرب وأمريكا والعالم الخارجي بأسلوب الإقناع، بعيدًا عن العصبية؛ لتغيير المفاهيم التي روَّج لها المستشرقون في الغرب والساسة والمثقفون والكُتَّابُ الذين لهم موقفٌ من الإسلام ويَتَحلَّوْنَ برُوح التعصب؛ لأنَّ الإقناعَ بحقائق الأمور في حقيقة الإسلام هو خيرُ وسيلة لتغيير المفاهيم في الغرب، وخاصَّةً أن القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية وسيرةَ الرسول وسيرةَ الخلفاء الراشدين، مليئة بالكثير من الوقائع والحقائق التي تؤكِّد الحقيقة)(٢٥٣).

ومن جانب آخرَ، فإنَّ البشرية لم تعرف جرائمَ ارتُكِبت كالجرائم التي ارتكبها الملحدون؛ فإنَّه في (القرن الماضي فقط، تم قتلُ ٤٢.٦ مليون إنسان في عهد جوزيف ستالين، و٣٧.٨ مليون في عهد ماو تسي تونغ)(٢٥٤)، وأكثر من ذلك.

ويقول سي جي برليمان -وهو مُؤلِّف وكاتب ملحد- لصحيفةِ "عين الشرق الأوسط": (إن عقيدة الإلحاد الجديد تدعو -بلا هوادةٍ- إلى القضاء على الدين، وفي حين أنني لم أسمع بعدُ عن ملحد جديد بارز يدعو علانيةً إلى التدمير الكامل لأولئك الذين يحملون معتقَدات دينية، فإنَّ العديد منهم اقترب من ذلك بشكل مُتعمَّد وخطير.

يقول هيتشينز: "أعتقد أنه يجب أن يُقهَر أعداءُ الحضارة، ويُهزَموا، ويُقتَلوا". وهو بلا شك يشير بقوله: "أعداء الحضارة" إلى أولئك الذين يؤمن بأنهم "يكرهوننا لحُرِّيَّاتِنا التي نمتلكها"، أو بالأحرى أولئك الذين يَجْرُؤون ببذاءة على مقاومة إمبرياليَّتنا واحتلالنا البائس.

يقول سام هاريس في كتابه «رسالة إلى أُمَّة مسيحية»: "بعض الأفكار

---

(٢٥٣) «انتشار الإسلام بحَدِّ السيف بين الحقيقة والافتراء»، نبيل لوقا ص٢٥.

(٢٥٤) «أقوى براهين د. جون لينكس»، جمعه وعلَّق عليه م. أحمد حسن ص٥٦٣.

خطيرة جدًّا للدرجة التي قد يكون فيها أمرُ قتلِ مَن يؤمنون بها أمرًا أخلاقيًّا")(٢٥٥).

وأَوَدُّ التذكير هنا بأنَّ "سام هارس" هو أحدُ الفرسان الأربعة الذين يَتَبَنَّوْن الإلحادَ في هذا العصر.

ولعلَّ في هذا البيان المختصَر كفايةً وإيضاحًا.

وأنتقل إلى كلامه عن التناقض في القرآن، واختراع النَّسْخ لتغطيته؛ فهو يظن أن النسخ اختُرِعَ ليغطِّيَ التناقضَ، ولم يعلم أن النسخ كان موجودًا منذ بداية الإسلام، وأن المشركين قد طرحوا هذه الشبهةَ قديمًا، ورد عليها القرآنُ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرِۭۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٢﴾ [النحل: ١٠١-١٠٢].

ومعنى الآية: أي (قال المشركون بالله، المُكذِّبو رسولَه لرسوله: إنما أنت يا محمد مُفْتَرٍ؛ أي: مُكذِّبٌ تَخرُص بتَقَوُّلِ الباطل على الله. يقول اللهُ تعالى: بل أكثرُ هؤلاء القائلين لك يا محمد: إنَّما أنت مُفْتَرٍ. جُهَّالٌ بأنَّ الذي تأتيهم به مِن عند الله ناسخُه ومنسوخُه، لا يعلمون حقيقةَ صحَّتِه)(٢٥٦).

ثم إن هذا الكلام كلامُ شخصٍ جاهلٍ بالشرائع، وليس بالإسلام فقط؛ حيث إن الكتب السماوية لم تَخْلُ من النسخ في شرائعها(٢٥٧). فليس النسخ أمرًا مُتأخِّرًا وُجِد ليُغطِّيَ التناقضَ في القرآن -كما يزعم أعداؤُه-، وإنما هو موجود منذ بدء التشريع، بل إنه جزء من منظومة التشريع.

من جانب آخرَ، فإن الآيات المنسوخة في القرآن -كما تَتَبَّعَها أحدُ الباحثين- لا تتجاوز تسعَ آيات(٢٥٨)؛ وبهذا يَتبيَّن عدمُ صحَّةِ الكلام الذي نقله دوكينز.

وأمَّا كلامُه عن التناقض في آياتٍ تدعو إلى المسالمة، وأخرى تدعو إلى الجهاد؛ فهذا من كمال التشريع، لا من التناقض. فكما هو معلوم أن القرآن كتابُ تشريعٍ لكلِّ ما يتعلق بأمور الإنسان وحياته، في سِلْمِه وحربِه؛ لذلك جاء بيانُ المواضعِ التي يكون فيها المسلم مُسالِمًا، والمواضع التي يكون فيها مُحارِبًا، وحدَّدها بشكل واضح لا التباسَ فيه. وليس هذا موضعَ بيانه، وإنما المقصود الإشارة إلى أن كلام دوكينز إنما هو ضربٌ من التخرُّصات والافتراءات.

أمَّا ما قاله عن الإيمان الأعمى دون دليل أو سؤال؛ فهذا ممَّا جاء القرآنُ بخلافه؛ حيث إن الله -سبحانه- حثَّ الناسَ على التفكُّر والنظر، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ [سبأ: ٤٦]، ومعناه: (أي: بخَصْلة

---

(٢٥٥) «صعود التطرُّف العَلْماني»، ص٨٣.

(٢٥٦) «جامع البيان»، ابن جرير الطبري (١٤/ ٣٦٢).

(٢٥٧) انظر: «إظهار الحق»، رحمت اللهِ الهندي (٣/ ٦٤١) وما بعدها.

(٢٥٨) «الآيات المنسوخة في القرآن الكريم»، د. عبد الله الأمين الشنقيطي ص١٥٥.

واحدة أُشِير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها؛ وهي طريقٌ نَصَفٌ، لستُ أدعوكم بها إلى اتِّباعِ قولي، ولا إلى تركِ قولكم، مِن دونِ مُوجِبٍ لذلك، وهي: ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾؛ أي: تنهضوا بهمَّةٍ ونشاطٍ وقصدٍ لاتِّباع الصواب وإخلاصٍ لله، مُجتمِعين ومُتباحِثين في ذلك ومُتناظِرين وفُرادَى، كلُّ واحد يخاطب نفسَه بذلك.

فإذا قُمْتم لله مَثْنَى وفُرادى؛ استعملتم فِكْرَكم، وأَجَلْتُموه، وتَدبَّرْتم أحوالَ رسولكم: هل هو مجنونٌ فيه صفاتُ المجانين من كلامه وهيئته وصفته؟ أم هو نبيٌّ صادق مُنذِرٌ لكم ما يَضُرُّكم ممَّا أمامكم من العذاب الشديد؟)(٢٥٩).

والآيات الداعية للتفكُّر ومُخاطَبة العقول كثيرةٌ جدًّا في القرآن، ومع هذا فليس بمذمومٍ أن يُولَد الإنسانُ مسلمًا وينشأ على ذلك، بل هو نعمة من الله وفضلٌ، وإنْ كان الأكملَ هو أخذَ الدين عن يقينٍ وعلمٍ، لا عن تقليدٍ واتِّباع.

وفي هذا يقول الخطَّابيُّ(٢٦٠) **-رحمه الله-:** (وقد جرى كثيرٌ من عوامِّ المسلمين في هذا على عادة النشوء وحكمِ الولادة، فكان إيمانهم إيمانَ تلقينٍ وتربيةٍ؛ وذلك أنهم يُولَدون في دار الإسلام، ويَتَرَبَّوْنَ في حُجُور المسلمين، وينشؤون في بلادهم، فيتلقنون كلمةَ التوحيد من الآباء والأُمَّهات، ويسمعون الأذانَ من المؤذنين، ويتلقون القرآنَ من الأئمة في الصلوات، ومن المعلِّمين في المكاتب، فيَستحكِمُ حكمُ الدين في قلوبهم، ويعتقدون حُسْنَه وصِحَّتَه تقليدًا، فينتفعون به ويقتصرون عليه.

ودينُ الإسلام إذْ كان موثوقًا بصحَّتِه، مشهودًا له بالفضل على كلِّ دين سواه؛ فقد يجب على كلِّ مُتديِّن به أن يكون مصدرُ اعتقاده إيَّاه عن نظرٍ واستدلال؛ ليكون العلمُ به أصحَّ، والوثيقةُ به أشدَّ.

وقد نصَب اللهُ -تعالى- الأدلَّةَ، وأزاح بها العلَّةَ، ووسَّع من وجوهها، وكثَّر من عددها؛ فهي -على اختلاف مراتبها في الوضوح والغموض- معروضةٌ للاستدلال بها، والاستشهاد بمواضعها، فلا أحدَ يَعقِل من آحاد الناس إلَّا وله في جَلِيِّها مُستدَلٌّ، وفي واضحها مُستشهَدٌ، وإنْ كان نزل فهمُه عن دقيقها ولطيفها، فالواجبُ على كلٍّ من الناس أن يَبذُل وُسْعَه فيه، ويبلغ جهدَه في دَرْكِه؛ فإنَّ الله -تعالى- يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩])(٢٦١).

وفي هذا دليلٌ على كمال الإسلام، وقُوَّةِ براهينه، فليس هناك ما يجب أن يُخفَى أو أن لا يُسأَل عنه ممَّا هو داخل في حدود تثبيت اليقين.

وأمَّا كلامه عن انشقاق القمر، وعن الإسراء؛ فهو فرعٌ عن ثبوت المُعجِزات

---

(٢٥٩) «تفسير السعدي» ص٦٨٣.

(٢٦٠) أبو سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم بن الخطَّاب البُسْتي الخَطَّابي الشافعي، وُلِد في مدينة بُسْت عام ٣١٩هـ، وتُوُفِّي عام ٣٨٨هـ، مُحدِّث، فقيه، من كبار أئمَّة الشافعية، له عدَّة تصانيف، منها: «أعلام الحديث»، و«معالم السُّنَن».

(٢٦١) «بيان تلبيس الجهمية»، ابن تيميَّة (١/ ٥٠١).

للأنبياء، وإذا ثبتت المعجزةُ ثبَت ما يتعلق بها. ومِن الصعب الكلامُ مع الملحد في إثبات المعجزة دون إثباتِ الخالق وقدرته وحكمته؛ (فالإقرارُ بالمعجزات تابعٌ للإقرار بخلقِ الله للكون، والإقرارُ بخلق الله للكون يَلزَم منه بالضرورة الإقرارُ بإمكان المعجزات)(٢٦٢).

إذَنْ فـ(الجدلُ في المعجزة يبدأ بتحديد الإطار المفاهيمي الذي يُدرِك من خلاله الباحثُ المُمْكِنات والواجبات والمُحالات ضمنَ فهمِه لحقيقة الكون وطبيعة أجزائه.

المعجزة في الفهم الألوهيّ -ومنه الإسلامي- لا تختلف في شيء عن القوانين المُطَّرِدة، فكلاهما أمرٌ عاديٌّ من خلق الله، الكون بدأ بإرادة الله، وتعمل قوانينُه بأمر الله، وتَحدُث الخوارقُ فيه بمشيئة الله، وقد أراد اللهُ أن يُظهِر وجودَه وجليلَ صفاته من خلال القوانين المُبْهِرة والجميلة، كما أظهر صفاتِه وصدقَ بعضِ خلقِه في خَرْقِ هذه القوانين بالفعل المُدْهِش.

وفي المقابِل ينطلق الملحدُ الماديُّ من فلسفة الطبيعانيَّة المنهجية، فالكون لا يتجاوز في مجموعه المادَّةَ والطاقةَ والحركةَ العابثةَ، ولا شيء بعد ذلك. وفي هذا الإطار لا مجال للحديث عن إعجازٍ ومعجزاتٍ؛ لأن القانون والنُّشوز يُفسَّرانِ ضمن آليَّةِ المادَّة الصَّمَّاء داخل صندوق العالم الذي لا شيء وراءه؛ إذِ الطبيعة منظومة تُفسِّر نفسَها بنفسها.

ولذلك نقول: الحديثُ عن المعجزات فرعٌ عن الإيمان بالله؛ إذْ إن وجود الله هو المُشكِّل الأساسي للإطار المفاهيمي الكوني؛ فإذا صُدِّق القولُ بوجود الله؛ صَحَّ إمكانُ المعجزة ضرورةً)(٢٦٣).

فخلقُ الكون أعظمُ بكثيرٍ من خَرْقِ أحدِ قوانينه، فالإقرارُ بذلك يستلزم ضرورةً الإقرارَ بما هو أدنى منه.

وإذا تقرَّر هذا؛ فإنه ليس من المُمتنِع ذهابُه ﵇ إلى بيت المقدس في ليلة، أو انشقاقُ القمر في عصره. وفيما يَخُصُّ الأخيرَ؛ فإنَّ قواعدَ دوكينز لا تمنع من ذلك في الإطار المادِّيِّ؛ حيث إن الصدفة تسمح بذلك، وقد سبق الكلامُ عليه سابقًا(٢٦٤).

وبهذا نكون قد انتَهَيْنا من الكلام عن شبهات دوكينز حول الإسلام وأحكامه، ونكون أيضًا قد انتهينا من عرضِ شبهاته والرَّدِّ عليها.

وأقولُ -ختامًا-: صدق اللهُ -سبحانه- إذْ يقول: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾ [يونس: ٣٩].

أسأل اللهَ الغفرانَ عن التقصير، وأرجوه أن يجعل هذا العملَ خالصًا لوجهه

---

(٢٦٢) «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث»، د. سلطان العميري (٢/٣٥٤).

(٢٦٣) «براهين النبوة»، د. سامي عامري ص٥١.

(٢٦٤) (ص٣٣).

الكريم؛ إنَّه -سبحانه- وليُّ ذلك والقادر عليه.

النتائج:

من خلال ما تم عرضه سابقاً يمكن التوصّل إلى النتائج التالية:

- أن الإلحاد الجديد هو الذي يعتمد على العلوم التجريبية ويختلف عن إلحاد عصر التنوير.
- أن منهج الاستدلال عند دوكينز يقوم على ثلاثة أمور: العاطفة، العقل، العلم.
- أن موقفه من الإله نابع من تصوره أن الإله عبارة عن مخلوق-تعالى الله عن ذلك- ولكنَّه في بحجم أكبر وقدرات أقوى.
- يتعمد دوكينز بشكل كبير على نظرية التطور لإنكار الإله.
- تشابه الشبهات التي يطرحها مع شبهات قد طُرحت من قَبل لكنَّه عرضها بطرق أخرى.
- لايعرف دوكينز شيئاً عن دين الإسلام وإنما ينتقد لمجرد التشغيب.

التوصيات:

من خلال ما تم التوصل إليه من النتائج يمكن أن يُوصَى بالتالي:

- تكثيف الجهود لمحاربة الإلحاد المنكر للإله والدين.
- التعريف بدين الإسلام في الأوساط الغربية.
- استخدام الوسائل الحديثة في إيصال الدين الإسلامي الصحيح للعالم.

المصادر والمراجع:

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (١٤١١هـ). درء تعارض العقل والنقل (الطبعة الثانية). المملكة العربية السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (١٤١٦هـ). مجموع الفتاوى. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (١٤٢٦هـ). بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (الطبعة الأولى). المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. (١٣٩٨هـ). شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. بيروت: دار المعرفة.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر . (١٤٢٠هـ). تفسير القرآن العظيم (الطبعة الثانية). دار طيبة .

إدريس، أ.د.جعفر شيخ. (١٤٢٢هـ). الفيزياء ووجود الخالق (الطبعة الثانية). الرياض: مركز البيان.

الأسمري، د.حسن بن محمد. (١٤٣٣هـ). النظريات العلمية الحديثة (الطبعة الأولى). جدة: مركز التأصيل.

ب.داونز، روبرت. (١٩٧٧م). كتب غيرت العالم. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

بباوى، د.نبيل لوقا. انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والإفتراء.

البخاري، محمد بن إسماعيل. (١٤٢٢هـ). صحيح البخاري (الطبعة الأولى). دار طوق النجاة.

بدوي، د.عبدالرحمن. (٢٠١٦). تاريخ الإلحاد في الإسلام (الطبعة الثانية). العراق: المركز الأكاديمي للأبحاث.

بيرغمان، د.جيري. (١٤٣٨هـ). المرأة بين الداروينية والإلحاد (الطبعة الأولى). الرياض: مركز دلائل.

تارناس، ريتشارد. (١٤٣١هـ). آلام العقل الغربي (الطبعة الأولى). الرياض وأبو ظبي: العبيكان وكلمة.

التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر. (١٤٠١هـ). شرح المقاصد في علم الكلام (الطبعة الأولى). باكستان: دار المعارف النعمانية.

جوتليب، أنتوني. (٢٠١٥م). حلم العقل (الطبعة الأولى). مصر: مؤسسة هنداوي.

حامد، حسام الدين. (٢٠١٥). الإلحاد وثوقية التوهم وخواء العدم (الطبعة الأولى). بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات.

الحرز، عبداللطيف. (٢٠١٦م). نقد وهم الإله (الطبعة الأولى). بيروت: دار الفاربي.

الحسن، أحمد. (٢٠١٣م). وهم الإلحاد (الطبعة الأولى). بغداد: نجمة الصباح للطباعة والنشر.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

دافيز، بول. (٢٠١٣م). الله والفيزياء الحديثة (الطبعة الأولى). دمشق: صفحات للنشر والتوزيع.

دراز، د.محمد عبدالله. (٢٠٠٧م). الدين. مصر: مؤسسة اقرأ.

دوكينز، ريتشارد. (٢٠٠٢م). صانع الساعات الأعمى (الطبعة الثانية). (مصطفى إبراهيم فهمي، المترجمون) القاهرة: دار العين للنشر.

دوكينز، ريتشارد. (٢٠٠٥م). العلم والحقيقة (الطبعة الأولى). (مصطفى إبراهيم فهمي، المترجمون) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

دوكينز، ريتشارد. (٢٠٠٩). وهم الإله (الطبعة الثانية). (بسام البغدادي، المترجمون) ستوكهولم: نسخة ألكترونية.

دوكينز، ريتشارد. (٢٠٠٩م). الجينة الأنانية (الطبعة الأولى). (تانيا ناجيا، المترجمون) بيروت: دار الساقي.

دوكينز، ريتشارد. (٢٠١٦م). سحر الواقع (الطبعة الثانية). بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.

ديكارت، رينيه. (١٩٦٨م). مقال عن المنهج (الطبعة الثانية). مصر: دار الكاتب العربي.

ديورَانت، ويليام جيمس. (١٩٨٨م). قصة الحضارة. بيروت: دار الجيل.

الرازي، أحمد بن فارس . (١٣٩٩هـ). معجم مقاييس اللغة. دار الفكر.

راسل، برتراند. (٢٠١٥م). لماذا لست مسيحيا (الطبعة الأولى). دمشق،بيروت: دار التكوين.

راسل، برتراند. (٢٠١٨م). تاريخ الفلسفة الغربية (الطبعة الأولى). بيروت: دار التنوير.

راسل، برتراند. الدين والعلم. دار الهلال.

الزين، سامي أحمد. (١٤٣٧هـ). قطيع القطط الضالة (الطبعة الثانية). الرياض: مركز دلائل.

الزين، سامي أحمد. (١٤٣٧هـ). نظرة خلف الستار (الطبعة الأولى). الرياض: مركز دلائل.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. (١٤٢٠هـ). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (الطبعة الأولى). مؤسسة الرسالة.

السقار، د.منقذ بن محمود. (١٤٣٦هـ). تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين (الطبعة الأولى). الخبر: مركز تكوين.

السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد. (١٤١٨هـ). تفسير القرآن (الطبعة الأولى). الرياض: دار الوطن.

سي. جي. ويرليمان. (١٤٤٠هـ). صعود التطرف العلماني (الطبعة الأولى). الرياض: مركز دلائل.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي. (١٤١٧هـ). الموافقات (الطبعة الأولى). دار

ابن عفان.

شريف، د.عمرو. (٢٠١٤م). خرافة الإلحاد (الطبعة الثالثة). القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.

الشنقيطي، د.عبدالله بن الشيخ محمد الأمين. الآيات المنسوخة في القرآن الكريم. القاهرة: مكتبة ابن تيمية.

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. (١٤١٥هـ). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. بيروت: دار الفكر.

الشهري، عبدالله سعيد. (٢٠١٤م). ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان (الطبعة الأولى). بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات.

صليبا، د.جميل. (١٤١٤ هـ). المعجم الفلسفي. بيروت: الشركة العالمية للكتاب.

الطبري ،محمد بن جرير. (١٤٢٢ هـ). جامع البيان عن تأويل آي القرآن (الطبعة الأولى). دار هجر .

الطريفي، عبدالعزيز بن مرزوق. (١٤٣٦هـ). الحجاب في الشرع والفطرة (الطبعة الأولى). الرياض: دار المنهاج.

طلعت، د.هيثم. (٢٠١٤م). العودة إلى الإيمان (الطبعة الأولى). مصر: دار الكاتب.

العالم، محمد أمين. (٢٠٠٣م). فلسفة المصادفة. مصر: مكتبة الأسرة.

عامري، د.سامي. (١٤٣٩هـ). براهين النبوة (الطبعة الأولى). الخبر: مركز تكوين.

عامري، د.سامي. (١٤٤٠هـ). براهين وجود الله (الطبعة الأولى). الخبر: مركز تكوين.

عامري، د.سامي. (٢٠١٦م). فمن خلق الله؟ (الطبعة الأولى). الخبر: مركز تكوين.

عامري، د.سامي. (٢٠١٨م). هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟ (الطبعة الأولى). الكويت: رواسخ.

العجرش، قيس قاسم. (٢٠١٧م). حوارات سيدني (الطبعة الأولى). بغداد: دار سطور.

العجيري، عبدالله صالح. (٢٠١٤). ميليشيا الإلحاد (الطبعة الثانية). الخبر: مركز تكوين.

العجيري، عبدالله صالح. (٢٠١٦م). شموع النهار (الطبعة الأولى). الخبر: مركز تكوين.

عدة مؤلفين. (١٤٣٧هـ). العلم ودليل التصميم في الكون (الطبعة الأولى). الخبر: مركز تكوين.

عزمي، د.هشام. (٢٠١٥م). الإلحاد للمبتدئين (الطبعة الثانية). مصر: دار الكاتب.

العميري، د.سلطان عبدالرحمن. (٢٠١٧م). ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (الطبعة الأولى). الخبر: مركز تكوين.

العميري، د.سلطان عبدالرحمن. فضاءات الحرية (الطبعة الثانية). المركز العربي

للدراسات الإنسانية.

عواجي، د.عبدالرحمن بن غالب. (١٤٣٩هـ). الإلحاد الحديث (الطبعة الأولى). الرياض: مركز دلائل.

قديح، مصطفى نصر. (١٤٣٨هـ). الصنع المتقن (الطبعة الأولى). الرياض: مركز دلائل.

القرني، د.عبدالله بن محمد. (١٤٣٦هـ). المعرفة في الإسلام (الطبعة الرابعة). جدة: مركز التأصيل.

القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

كراوس، لورانس. (٢٠١٥م). كون من لاشيء مع تعليق ريتشارد دوكينز (الطبعة الأولى). مصر: منشورات الرمل.

لالاند، أندريه. (٢٠٠١م). موسوعة لالاند الفلسفية (الطبعة الثانية). بيروت-باريس: منشورات عويدات.

لينكس، د. جون. (٢٠١٥م). العلم ووجود الله. (ماريانا كتكوت، المترجمون) مصر: خدمة CREDOLOGOS.

لينكس، د.جون. (١٤٣٧هـ). أقوى براهين د. جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين (جمع وتعليق: م.أحمد حسن) (الطبعة الأولى). الرياض: مركز دلائل.

المازري، محمد بن علي. (١٩٨٨ م، والجزء الثالث صدر بتاريخ ١٩٩١م). المُعْلم بفوائد مسلم (الطبعة الثانية). الدار التونسية، المؤسّسة الوطنية للكتاب بالجزائر، المؤسّسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدّراسات بيت الحكمة.

مجلة أنا أفكر. العدد الثالث. نسخة ألكترونية.

مجلة تراث الإنسانية. العدد السابع. مكتبة الأسرة.

مجموعة من الأكاديميين والباحثين المختصين في جامعات العالم. (١٤٣٩هـ). موسوعة العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة (الطبعة الأولى). الرياض: دار التوحيد.

المصري، د.أيمن. (٢٠١٧م). نهاية حلم وهم الإله (الطبعة الأولى). مؤسسة الدليل.

الميداني، عبد الرحمن بن حسن حبنَّكة. (١٤١٢ هـ). كواشف زيوف (الطبعة الثانية). دمشق: دار القلم.

الندوة العالمية للشباب الإسلامي(إشراف د. مانع الجهني). (١٤٢٠هـ). الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (الطبعة الرابعة).

الهروي، علي بن (سلطان) محمد. (١٤٢٢هـ). مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (الطبعة الأولى). بيروت: دار الفكر.

الهندي، محمد رحمت الله بن خليل الرحمن. (١٤١٠هـ). إظهار الحق (الطبعة الأولى). الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

هوكينج، ستيفن. (١٤٢٣هـ). الكون في قشرة جوز. الكويت: عالم المعرفة.

وليم كلي رايت. (٢٠١٦م). تاريخ الفلسفة الحديثة (الطبعة الثالثة). بيروت: دار التنوير.

المصادر والمراجع الإلكترونية:

«الداء والدواء»، د. عمرو شريف، ح٥: (إله دوكينز)
https://www.youtube.com/watch?v=f7xEXEE3UBw&t=588s

٠٢/٠٢ شيء من لا شيء: محادثة بين لورانس كراوس وريتشارد دوكنز
https://www.youtube.com/watch?v=1aTGYx7BAj8

https://ar.wikipedia.org/wiki/ريتشارد_دوكينز

https://www.youtube.com/watch?v=mHHM8P9YOxk

أعداء المنطق: عبادة الخرافات
https://www.youtube.com/watch?v=h8hisCqOFr0&t=2071s

دورة: "النزعة العلموية"، عبد الله العجيري
https://www.youtube.com/watch?v=EyuzUYlW_3U&t=2367s

فيلم وثائقي بعنوان: "مطرودون غير مسموح بالذكاء"
https://www.youtube.com/watch?v=WZ9MYSa0Jiw&t=3656s

قاموس جامعة إكسفورد

Stephen Bullivant and Lois Lee. (2016). A Dictionary of Atheism (First Edition). United Kingdom: Oxford University Press.

لقاء في البرنامج الإذاعي: "بوينت أوف إنكوايري" بتاريخ: ٨ ديسمبر ٢٠٠٧م) على الرابط:
http://media.libsyn.com/media/pointofinquiry/POI_2007_12_7_Richard_Dawkins.mp3

لقاء مع ريكي جيرفيس ، بعنوان: " Richard Dawkins & Ricky Gervais on Religion" على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=nfIBEJYZG7o&t=321s

مقابلة ريتشارد دوكنز على قناة الجزيرة الإنكليزية
https://www.youtube.com/watch?v=tjQD1GvSL1k&t=479s

مقال في حساب (الباحثون المسلمون) في الفيس بوك، بعنوان: "منكوشات تطوُّريَّة"، على الرابط المختصر: http://cutt.us/0jMz9

مقالة في صحيفة (نيويورك تايمز) بعنوان: "حل لغز نظرية التطور" بتاريخ ٩/ ٤/ ١٩٨٩م، على هذا الرابط:
"http://www.biblicalcatholic.com/apologetics/p88.htm"

مقطع بعنوان: "حول حرية الإرادة ونفي الوهم عن شعورنا بأصالتها"، د. عبد الله الشهري" https://www.youtube.com/watch?v=MHjGIb7SeNI

مقطع بعنوان: (أفضل خمسة أسباب لعدم وجود إله)
مقطع د. سامي عامري بعنوان: "جناية داوكنز على الفلسفة في كتابه «وهم الإله»"، على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=WrcVoxW2C88&t=1028s
مناظرة بين: ديباك شوبرا، وريتشارد دوكينز
https://www.youtube.com/watch?v=T3XIpODjCKU
هل الإيمان بالدين يجعل من العالم مكانًا أفضلَ؟ مناظرة بين: ريتشارد دوكينز، وجورج بيل
https://www.youtube.com/watch?v=x3811zymWX4&t=2632s